نساء في التاريخ

نساء في التاريخ

د. عمرو مرزوق

تصميم الغلاف: أحمد الصبّاغ

رقم الإيداع: 26645 /2017

I.S.B.N:978- 977-6640-25-2

الطبعة الأولى 2018م



الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر : د. رامي عبد الباقي

نائب المدير : رامي غزالة

شؤون إدارية : رقية عبد الله

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

د. عمرو مرزوق

نساء في التاريخ



تقف اللغة العربية بجبروتها وقوتها مكتوفة الأيدي أمامها ، لا تصفها كلمات ولا عبارات، تحتاج لغة جديدة فقط لتصف عظمة ما فعلت، قاومت الظروف بكل أنواعها ونجحت بوضع بصمة جلية على جبين التاريخ،لم تستسلم لعادات وتقاليد لا تسمن ولا تغني من جوع، عرفت دورها جيداً فأتقنته ...لله درها إنها المرأة ..المرأة عبر التاريخ.

سجل التاريخ للنساء مواقف مشرفة لم يمحها الزمن ولم تغير ملامحها ظروف اجتماعية متقلبة، تستشعرها بقلبك قبل عينيك، يكفيك أن تبحر في بحر التاريخ لترى بيارقها ترفرف عالياً، لوفائها ولتضحيتها وإخلاصها وتحملها الأذى الجسدي والنفسي، صبرها على فراق فلذات أكبادها،عندما ستجلس في ضيافة إحداهن ستقص على مسامعك تفاصيل تأسر الألباب وتحبس الأنفاس، ستدرك حينها أنك تقدر وأن لا حدود لقدرتك، ستدرك أنك أنت من تضع سقفاً يحد قوتك لا الظروف.

أنت تكبل نفسك بقيود لا قيمة لها، ستعلمك أن الوقوف بجانب الحق الضعيف هو الخيار السليم مهما بلغ جبروت وبطش الباطل، ستعلمك أن الحياة لا تقف عند موت ابن أو زوج أو أب، فعش كما عشن على الطريق الصحيح رغم قلة سالكيه.

تفرد الإسلام منذ بداية التاريخ بإنصافه الحق للمرأة، فقد أثبت وبجدارة أن تشريعاته أعطت للمرأة حقوقها كاملة بلا أي نقص على عكس باقي الشرائع البشرية، فعاشت المرأة في كنف الإسلام تتمتع بحقوقها كاملة من أصغرها لأكبرها،عاشت حياة مليئة بالمواقف التي تنحني لها الهامات وترفع لها القبعات احتراماً، فليس غريباً أن تجد صحابيات رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحبات الصدارة في كتب التاريخ من حيث عددهن وعظم مواقفهن، وهذا سيظهر واضحاً في

هذه السلسلة، و الآن سأترككم مع جواهر نادرة انتقيتها لكم بعناية حريٌّ بأمة الإسلام أن تضعها تاجاً تتباهى به أمام الأمم .

وفي النهاية لا يسعني إلا شكر من ساعدني في إخراج هذا الكتاب

د/ حازم نجيب

ضحى أبو عرة

و لدار زين لسعيها تقديم كل ما هو هادف ولصديقتي العزيزة آيه سعد الدين

د/ عمرو مرزوق

الصحابية نسيبة بنت كعب

بطلة غزوة أحد وهي أم عمارة، نسيبة بنت كعب بن عمرو بن عوف الأنصارية من بني مازن النجار، كانت إحدى امرأتين بايعتا رسول الله - صلى الله عليه وسلم – في بيعة العقبة الثانية، حسُن إسلامها وكانت زوج زيد بن عاصم، شهدت جميع الغزوات مع رسول الله تضمد الجرحى، وتسقي الجنود، وتعد الطعام، وتحمس الرجال على القتال.

وفي يوم أحد عندما رأت المشركين يتكاثرون حول رسول الله استلت سيفها، وشقت الصفوف حتى وصلت إلى رسول الله قاتلت بين يديه وضربت بالسيف يميناً وشمالاً حتى هابها الرجال وأثنى عليها النبي، وقال: (ما التفت يميناً ولا شمالاً يوم أحد إلا وجدت نسيبة بنت كعب تقاتل دوني).

ولقد قالت يا رسول الله: ادع الله أن أرافقك في الجنة، فقال: (اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة)؛ جرحت يوم أحد جرحاً بليغاً فكان النبي يطمئن عنها ويسأل: كيف حال نسيبة ؟ وعندما أخذت تحث ابنها عبد الله بن زيد عندما خرج يوم أحد فقالت: انهض بني، وضارب القوم، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (ومن يطيق ما تطيقين يا أم عمارة)؟وتمضي الأيام، فشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان في الحديبية؛ وهي بيعة المعاهدة على الشهادة في سبيل الله كما شهدت يوم حنين، ولما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ارتدت بعض القبائل عن الإسلام وعلى رأسهم مسيلمة الكذاب، فهرعت إلى أبي بكر الصديق- رضي الله عنه- تستأذنه بالالتحاق بجيش حرب الردة فأذن لها

فخرجت ومعها ابنها عبد الله بن زيد وأبلت بلاءً حسناً وتعرضت لكثير من المخاطر.

وعندما أرسل الخليفة أبو بكر ولدها حبيب بن زيد إلى مسيلمة الكذاب في معركة اليمامة برسالة يحذره فيها من إدعاء النبوة والكذب على الله، أراد مسيلمة أن يضمه إليه فرفض فقطع جسده عضواً عضواً وهو صابر، فلما علمت أمه أقسمت أن تثأر له، وخرجت مع البطل خالد بن الوليد رضي الله عنه؛ لقتال مسيلمة وقاتلت وكانت تصيح:"أين أنت مسيلمة اخرج يا عدو الله". وجرحت اثنا عشر جرحاً فواصلت الجهاد حتى قطعت يدها، فلم تحس بها وتقدم وحشي بن حرب بحربته المشهورة ووجهها إلى مسيلمة فصرعه، وأجهز عليه ابنها عبد الله بن زيد، وظل أبو بكر يطمئن عليها حتى شفيت، وخرجت مع المسلمين لقتال الفرس، سقط إيوان كسرى وغنم المسلمون غنائم عظيمة، بكت وتذكرت النبي وهو يشارك في حفر الخندق ويضرب بالمعول صخرة عظيمة، وهو يصيح: "الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس"، وكانت ضمن الغنائم قطيفة مرصعة بالجواهر واللآلئ فكانت من نصيب أم عمارة، احتضنت القطيفة وهي تبكي لهذه المنزلة العالية بين الصحابة.

الصحابية صفية بنت عبد المطلب

سنتحدث اليوم عن صحابيةٍ عُرفت بجرأتها وشجاعتها وقوة شخصيتها، صحابية يربطها بالنبي صلى الله عليه وسلم نسبٌ قوي فهي عمته، وقد آمنت به منذ بدايات جهره بالدعوة الإسلامية، والدها عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم، ووالدتها هالة بنت وهب أخت السيدة آمنة أمّ النبي صلى الله عليه وسلم، أخوها أسد الله وأسد رسوله حمزة وابنها الزُبير ابن العوام حواري - رسول الله صلى الله عليه وسلم - وأحد العشرة المبشرين بالجنة وأول من سلَّ سيفًا في الإسلام.

لا تنسى صفية ذلك اليوم الذي جمع فيه النبي-صلى الله عليه وسلم- أقرباءه بعد أن نزل قوله تعالى: {وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ}(الشعراء 214)، وكانوا نحو أربعين شخصاً فدعاهم إلى الإسلام، ثم قال لهم: (يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم من الله لا أُغني عنكم من الله شيئًا، يا بني عبد المطلب لا أُغني عنكم من الله شيئًا، يا عباس ابن عبد الله المطلب لا أُغني عنك من الله شيئًا، يا صفية عمة رسول الله لا أُغني عنك من الله شيئًا، يا فاطمة بنت رسول الله لا أُغني عنك من الله شيئًا)(صحيح البخاري 4771) ، نعم يا صفية عمة رسول الله لا أُغني عنك من الله شيئًا،لا يمكن لصفية أن تصف الفرح الذي غمرها يوم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم اسمها، ولكنها رُغم فرحها وافتخارها بذلك ظلت عمرها كله تأخذها رجفة كلما تذكرت قوله: (لا أغني عنك من الله شيئًا)، كلمات قليلة كان لها أثر جذري في تغيير حياة صفية، بدأ ذلك التغيير حين قررت صفية أن تترك دين آبائها وأجدادها، وتتبع دين ابن أخيها محمد بن عبد الله، ظلت تلك الكلمات محفورة في ذاكرتها عمرها كله، فكونها عمة للنبي صلى الله عليه وسلم لن يفيدها بشيء؛ إذا لم تتبع سنته وطريقته وتلتزم بتعاليم دينه، وقرابتها للنبي صلى الله عليه وسلم لن تغني عنها يوم القيامة شيئاً.

بعد هذا الموقف تغيب عنا صورة السيدة صفية طيلة العهد المكي، شأنها في ذلك شأن الكثير من الصحابيات المتميزات، علقت إحدى صديقاتي وقالت: هذا أمر بديهي فالتاريخ يكتبه الرجال الأقوياء، لذا سيكون لهم منه نصيب الأسد، ولكنني أقول الرجل الذي يتربى على يد هكذا نساء لا ينسى فضلهن، فقوته لها لا عليها، يحميها ولا يظلمها.

إذن تغيب عنا تفاصيل حياة السيدة صفية طيلة العهد المكي، ولكننا نعلم أنها في تلك المرحلة بالتأكيد كانت تربي الزبير تربيةً تؤهله ليكون حواري النبي صلى الله عليه وسلم، وتربي أخاه الشائب ليكون مجاهدًا بطلًا، وقد كان كما أرادت، فشارك في قتل مسيلمة الكذاب واستشهد في معركة اليمامة، كما تربي ابنها عبد الرحمن الذي شهد معركة اليرموك واستشهد في سبيل الله.

نعم هي أمُّ هؤلاء الكرام وأمُّ أختهم زينب، ويكفي الأمُّ عظمةً أنها تصنع الأبطال، ذكرني هذا بقصة رمزية تحكي عن ملك؛ أراد أن يشجع هذا الملك الإبداع في مملكته، فرصد تاجاً مرصعًا بالجواهر لمن يقوم بأفضل عمل في مملكته، فاز في المسابقة رسام وشاعر ونحات، احتار الملك على رأس أي منهم يضع التاج، وإذ بامرأة عجوز تشق الصفوف وهي تبتسم، سألها الملك: من أنتِ أيتها العجوز؟ أجابته بثقة وفخر: أنا والدة الرسام والشاعر والنحات، اقترب الملك منها ووضع التاج على رأسها وهو يقول: أنتِ التي تستحقين التاج أنت صانعة الأبطال.

في العهد المدني نجد لصفية رضي الله عنها بصمات وأي بصمات، في غزوة أحد تلك المعركة التي انتهت بخسارة المسلمين، استشهد أسد الله حمزة بن عبد المطلب أخو صفية وعم النبي صلى الله عليه وسلم ومثّل وحشي بجثته فبقر بطنه وجدع أنفه وأذنيه، فجاءت صفية إلى ميدان المعركة وحملت رمحًا وجعلت تقول للناس موبخة مؤنبة: "انهزمتم عن رسول الله"، ثم تقدمت باتجاه الشهداء تريد رؤية أخيها

حمزة وقد سمعت ما صنعه المشركين به من المثلى، يُروى أنها جاءت وهي تحمل في يدها ثوبين لتكفنه، وعندما علم النبي صلى الله عليه وسلم بمقدم صفية إلى أُحد، ساءه أن ترى أخاها حمزة بهذا المنظر المريع، لعله خشي عليها من الآثار النفسية التي قد يتركه هذا المظهر في نفسها، فطلب من ابنها الزبير أن يحول دون رؤية أمه لأخيها حمزة، عندها اعترض الزبير طريق أمه قائلًا: "يا أماه إن الرسول صلى الله عليه وسلم يأمرك أن ترجعي"، أجابته وهي تبتلع حسرتها وألمها مع دموعها: "ولم يا بني؟ قد بلغني أنه قد مُثل بأخي في سبيل الله وما أرضاني بذلك ولاحتسبن واصبرن إن شاء الله". الله الله ! يالها من كلماتٍ قوية وياله من إيمانٍ ثابت "وما أرضاني بذلك". نعم فما دامت تلك مشيئة الله وإرادته كيف لصفية المؤمنة أن لا ترضى، الإيمان والاستسلام لقضاء الله راحةً لنفس المؤمن وعقله وروحه وماذلك إلا لمؤمن حق الإيمان، فترى المؤمن حق الإيمان راضٍ في البلاء والرخاء، قد يقول قائل من البديهي أن نرى المرء يرضى في الرخاء فكيف يرضى في حالة البلاء؟

الجواب في حديث النبي صلى الله عليه وسلم: (عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له وليس ذلك إلا لمؤمن)(صحيح مسلم 2999)، حين يتفكر العبد في المصيبة يرضى بقضاء الله ويحمده لأنها لم تكن أكبر من ذلك هذا من ناحية، ولأن النعم التي أعطاه الله تعالى إياها لا تعد ولا تحصى، كثير من الناس لا يطبقون هذا المفهوم بالرضا بالقضاء والقدر، فإذا ما أصيبوا بمصيبة جزعوا ويأسوا وربما قالوا ما لا يرضي الله تعالى.

رثت صفية أخاها بأبيات من الشعر سأورد بعضًا منها لأريكم كيف أنها لا تتنافى مع رضاها بقضاء الله بأخيها حمزة، ولكنني قبل ذلك

أحب أن أجيب عن تساؤل قد يخطر في بال البعض، هل يتعارض إيمان المسلم بقضاء الله مع حزنه على من يفقده في ذلك من الأحباب؟ كثيرون هم من تخفى عليهم حقيقة الرضا بقضاء الله فيظنون أن الحزن والبكاء والرثاء يتناقض مع مفهوم الصبر وحقيقة الرضا، فيحاولون كبت مشاعرهم وقمع أحزانهم على أحبابهم، رغم أن هذا مما أباحه الله تعالى بل هو مما جعله رحمة للإنسان، لذلك رأينا كيف بكى النبي صلى الله عليه وسلم عندما فقد ولده إبراهيم، فاستغرب الصحابي عبد الرحمن بن عوف وقال للنبي صلى الله عليه وسلم: "يا رسول الله أتبكي؟" فقال: "يا ابن عوف إنها رحمة، وإن العين لتدمع وإن القلب ليحزن ولا نقول إلا ما يرضي ربنا وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون". فالرضا بقضاء الله إذن هو عدم الاعتراض على إرادة الله، والثقة بأن الله يكتب الخير للإنسان في دينه ودنياه وأُخراه أو فيهما معًا وأن لا يتمنى أن ما كان من قضاء الله لم يكن. ومما قالته صفية في رثاء أخيها :

أقول وقد أعلى النعي عشيرتي ***جزى الله خيرًا من أخٍ ونصير
دعاه إله الحق ذو العرش دعوةً *** إلى جنة يحيا بها وسرور
فذلك ما كنا نُرجِّي ونرتجي *** لحمزة يوم الحشر خير مصير
فوالله لا أنساك ما هبت الصَبا *** بكاء وحزنًا محضري ومسيري
على أسد الله الذي كان مدرها *** يذود عن الإسلام كل كفور

بعد غزوة أحد كانت غزوة الخندق، في غزوة الخندق احتمت السيدة صفية مع نساء النبي صلى الله عليه وسلم وبعض نساء الصحابة وأولادهن في حصن يملكه شاعر الإسلام حسان بن ثابت، يقال لهذا الحصن حصن فارع، وقد ذهب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ليحفروا الخندق في تلك الأثناء حول المدينة، في هذه الفترة حدثت في

حصن فارغ قصةٌ عجيبة، كان أحد يهود بني قريظة يدور حول الحصن والنظرات الخبيثة تملأ عينيه، هرعت صفية إلى حسان بن ثابت تخبره بذلك وهي تقول: قم ياحسان، قم إلى ذلك اليهودي فوالله إني لا آمنه أنه يدل على عوراتنا، ما الذي كانت صفية تخشى أن يعرفه ذلك اليهودي؟

صفية كانت تخشى أن يعرف اليهودي أن الحصن ليس فيه إلا النساء والأطفال فيذهب بتلك الأخبار إلى يهود بني قريظة، ويهود بني قريظة في غزوة الخندق نقضوا عهدهم مع النبي - صلى الله عليه وسلم - وناصروا أعداءه عليه، خافت أن يهجموا على الحصن فيقتلوا النساء والأطفال أو يسبوهم إذا ماعلموا أن ليس هناك من يحمي النساء والأطفال في الحصن، لم يكن مع النساء المختبئين في الحصن سوى حسان بن ثابت ولكن! لماذا لم يبقِ النبي صلى الله عليه وسلم مع النساء من يحميهن من كيد المعتدين؟!، هل كان حسان قادرًا على حمايتهن وحده؟

في الواقع كان النبي صلى الله عليه وسلم يحتاج إلى جهود جميع الرجال لرد كيد الأحزاب عن المدينة، فاصطحبهم معه جميعًا وترك النساء والأطفال في أمان الله ورعايته، أما حسان بن ثابت صاحب الحصن الذي التجأ إليه بعض النساء والأطفال فله قصة أخرى، ندركها حين ندرك قصة صفية مع ذلك اليهودي الذي أراد التجسس على الحصن، أتعرفون ماذا أجاب حسان صفية عندما طلبت منه أن ينزل إلى اليهودي فيقتله؟ قال لها: "يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب والله لقد عرفت ما أنا بالذي يقدر على هذا"، نظرت صفية في عينيه فأدركت صدق ما يقول، لنا هنا أن نتساءل ماذا فعلت صفية إذن؟ حملت عمودًا ثم نزلت متسللةً وأتت عدوها من خلفه وضربته على رأسه بالعمود عدة ضربات حتى قتلته، عندما رجعت إلى الحصن كان

حسان بن ثابت ينتظر عودتها سالمةً بفارغ الصبر و كان يرفع يديه داعيًا: "اللهم احمِ صفية واعدها إلينا سالمة غانمة"، بادرته صفية بقولها: "انزل يا حسان فخذ سلبه، السلب هو ما مع الشخص من سيف وأمتعة، فإنه والله لا يمنعني من ذلك إلا أنه رجل وأنا امرأة"، أجابها حسان: "يرحمك الله يا عمة رسول الله والله ما لي من سلبه من حاجة"، طبعًا ليس من المألوف أن يخاف الرجال ولكنه موقفٌ مشرفٌ وعظيم أن تكون المرأة أشجع من الرجال، لعلنا أدركنا الآن لماذا لم يصطحب معه النبي صلى الله عليه وسلم معه حسان إلى غزوة الأحزاب وأبقاه مع النساء راعيًا وحارسًا، صلى الله عليك يا معلم الناس الخير.

عندما نتأمل في هذه الحادثة ندرك كيف كان النبي صلى الله عليه وسلم يستثمر مواهب أصحابه وقدراتهم كلٌ في مجاله، كان يختار الرجل المناسب للمكان المناسب، كان يعرف الشجعان فيسند إليهم الأعمال التي تتطلب الشجاعة والإقدام كإعطائه السيف أبي دجانة يوم أحد، كان يعرف من يصلح للقيادة فيعطهم القيادة كالعبيدة ابن الحارث وحمزة بن عبد المطلب وجعفر وعلي بن أبي طالب، كان يعرف من يصلح للإمارة كأبي عبيدة ومعاذ بن جبل، وكان أيضًا يعرف من لا يصلح للإمارة رغم تقواه ورغم ورعه، ولهذا لما طلب منه أبو ذر الغفاري رضي الله عنه أن يوليه إمارةً ، قال له: (يا أبا ذر إنها أمانة وإنك لرجلٌ ضعيف)(غاية المرام 174)، ضعف أبي ذر هنا لم يكن من ناحية الدين والتقوى، بل من ناحية ما تحتاجه الإمارة كمواصفات سياسية وقيادية خاصة، لذلك فإن رجلًا كأبي ذر يصلح كداعية إلى سبيل الله ولكنه لا يصلح للإمارة، هذا يدلنا على أهمية العمل كفريق لا كأفراد، أفراد الفريق يكمل بعضهم بعضًا؛ واحدٌ بشجاعته والآخر بعلمه والثالث بأمواله والرابع برأيه والخامس بعقله وذكائه.

عندما ننظر إلى النحل نراهم يعملون بطاقات الفريق لا بطاقات الأفراد، طائفةٌ تبني البيوت، طائفةٌ تنظفها، طائفةٌ تحرسها وتحميها، طائفةٌ تدل على مواضع الأزهار، وطائفةٌ تمتص الرحيق وتؤتي به وتخرج العسل اللذيذ وللخلية ملكة واحدة، شعارهم المرفوع لا قيمة لحياة عندما تتعرض سلامة الجماعة للخطر، مشكلتنا اليوم أننا لا نعرف من أين تؤكل الكتف؟، لا يُحسن أغلب قادتنا ومربينا وضع الرجل المناسب في المكان المناسب وعلى الشكل المناسب، لا يعرفون كيف يستثمرون اختلاف العقول و القدرات والمواهب في صناعة الفريق الواحد الذي يكمل بعضه بعضًا، نعاني من مصطلح فلان لا يصلح لشيء، فلان عنده خللٌ في كذا، والحقيقة أن كل شخص لديه نقاط ضعف ونقاط قوة وعلينا أن نكتشف نقاط القوة ونستثمرها لصالحنا أي لصالح المسلمين وفائدتهم، كيف استثمر النبي صلى الله عليه وسلم نقاط القوة عند حسان بن ثابت.

أقول بصراحة أجمع رواة السيرة والمؤرخون على أن حسان لم يكن رجل حرب وقتال وهذه نقطة ضعف عنده، ولكنه في الوقت ذاته كان يملك نقاط قوة يمكن تنميتها واستثمارها، وهذا ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم فهو لم يشعر حسانًا أنه جبان أو ضعيف، بل استفاد من نقاط قوته، فقد كان حسان شاعرًا بليغًا فصيح اللسان وكان النبي صلى الله عليه وسلم ينصب له منبرًا في المسجد ليهجو الذين كانوا يهجونه ويهاجمون الإسلام، كثيرًا ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول عن حسان:"إن روح القدس مع حسان ما دام ينافح عن رسول الله."(معجم الشيوخ 1\528).

أما الأمر الآخر الذي أحب أن أعقب عليه في حادثة صفية واليهودي، فهي الشجاعة التي كانت تمتلكها تلك المرأة والتي فاقت بها كثيرًا من الرجال، يحاول الكثير من الرجال تنقيص المرأة والإقلال من

شأن المرأة، يدعون أنها أقل عقلًا من الرجال، وربما استند بعضهم إلى وصف النبي صلى الله عليه وسلم للنساء بأنهن ناقصات عقل ودين ليدعم به قوله.

يؤكد العلم اليوم أن المرأة تختلف عن الرجل في أسلوب إدراكها للأمور في طريقة تحليلها لها، أثبتت الدراسات الحديثة أن الاختلافات بين الجنسين ليست مقتصرة على الصفات الجسدية بل تمتد لتشمل كثيرًا من الخصائص الفكرية والسلوكية، يتضح ذلك في الاستعداد الفطري والبيولوجي لدى الذكور للعب بنوع خاص من الألعاب التركيبية وألعاب الطيارات والسيارات والمسدسات، في حين تهتم الأنثى بالدمى والعرائس وما يتعلق بها من ملابس مزركشة وأدوات تجميل، ألعاب مثلًا على شكل بيوت صغيرة تحوي غرفًا متنوعة؛ جلوس ضيوف، طعام، نوم هذا ما تهتم به الأنثى وهذا ما يهتم به الذكر. عند بلوغ السنة الثالثة من العمر تبرع الفتاة أكثر من الفتيان في فهم مشاعر الآخرين، أما في سن السابعة فتتكون لديهن البراعة في قراءة القصص وفهم القصص، وهناك اختلاف طفيف في تركيبة المخ بين الذكر والأنثى، بناءً على هذا يترتب عليه اختلاف في الوظيفة لدى كل منهما، الفص الأيمن من مخ الذكر أصغر من الفص الأيسر، بينما يتماثل الفصان عند المرأة، يعزو العلماء قدرة المرأة على الاستماع والكلام بآنٍ واحد على قدرة استخدام الفصين في وقت واحد، بينما يستخدم الرجل الفص الأيسر من المخ إذا كان يمينيًا والفص الأيمن من المخ إذا كان يسارياً ، الأمر الذي لا يمكنه من الاستماع والكلام بآنٍ واحد.

آخر ما وصلت إليه الأبحاث العلمية اليوم أنه لا يوجد فروقٌ في المستوى الكلي للذكاء عند قياسه بمعامل الذكاء بين الذكر والأنثى، ولكن توجد اختلافات في أنماط الذكاء أو ما يسمى بالقدرات الذهنية

على معالجة المواضيع المختلفة، خلاصة القول: إن الذكور يتفوقون في المهارات التي تتطلب ذهنًا تحليلًا، بينما تتفوق الإناث في المهارات اللفظية واللغوية مما يمكن معه القول، إن لكل منهما نقاط ضعفٍ ونقاط قوة، أما حديث ناقصات عقل ودين فهو حديثٌ صحيح ولكن يُساء تفسيره للأسف من قبل الكثيرين؛ الذين يفهمونه فهمًا حرفيًا ويغفلون النظر إلى السياق الذي قيل فيه، كما يهملون أدلة أخرى من القرآن والسنة على المساواة الرجال النساء، دعونا نقول مساواة النساء للرجال.

يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى المُصلى في يوم عيد فطر أو أضحى، فمر بالنساء فقال لهن:" ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للبّ الرجل الحازم من إحداكن"(صحيح ابن حبان 5744)، إذن الحديث قيل على سبيل الامتداح والملاطفة لا على سبيل الانتقاص والاستهزاء، وذلك تعجبًا من أن تكون المرأة قادرة على تطويع أعتى الرجال وأقساهم، تطوعهم بلينها الدافئ وعاطفتها الجياشة، عندما سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن نقصان عقل المرأة أجاب: "أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل"(صحيح البخاري 304)، ومرد ذلك طبعًا إلى قلة الضبط والتثبت لدى المرأة لا إلى قلة ذكائها، لأن العقل في اللغة له معانٍ كثيرة منها التثبت ومنه عقل الناقة أي ثبتها في مكانها، هذا ما توضحه آية الشهادة في قوله تعالى:

{وَاسْتَشْهِدُواشَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْۖ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ} [البقرة:282]، "تضل" في الآية بمعنى تنسى، أي تنسى إحداهما فتتذكر إحداهما الأخرى.

إذن الحكمة من جعل شهادة المرأتين تعدل شهادة الرجل هو قلة ضبط المرأة للأمور المالية ليس بسبب قلة ذكائها، بل بسبب انصراف اهتمامها عن هذا النوع من قضايا غالبًا، لذا نرى الدين الحنيف

يقبل بشهادة المرأة وحدها فيما لم يطلع عليه إلا النساء غالبًا كالولادة والبكارة والرضاعة، وهذا دليل على أن المرأة لا تقل ذكاءً وقدرةً عن التفكير عن الرجل، وإنما تختلف اهتماماتها عن اهتماماته وينبغي لهذا الاختلاف أن يؤخذ بعين الاعتبار في سن الأحكام والقوانين. الحقيقة؛ القرآن الكريم يُسقط فوارق الأفضلية بين الذكر والأنثى ويحصر الأفضلية بالتقوى، فيقول: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات:13]، ولذلك يخطئ اليوم من يقول: إن الدين يفضل الذكر على الأنثى، ويعلي راية الذكر ويسقط راية الأنثى وأن الأنثى محكومة لإرادة الذكر ليسيطر عليها ويستبد بها، لأنه أعلى شأنًا منها وأكثر ذكاءً، لهؤلاء يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «النساء شقائق الرجال» (سنن الترمذي [113])، ولهذا نراه أيضًا في مسيرتنا مع عالم الصحابيات يعتز بالأنثى، يكرم الأنثى يفسح لها مجالًا في كل ميادين الحياة الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والعسكرية والسياسية. نعود إلى صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها، فنرى النبي صلى الله عليه وسلم يسهم لها في غزوة الأحزاب من الغنائم كما يسهم للمقاتلين، فقد اعتبر دفاعها عن النساء في حصن فارع وقتلها لذلك اليهودي مشاركة عملية في الجهاد، يُروى أنه لما علم النبي صلى الله عليه وسلم لما كان من أمر صفية وحسان واليهودي ضحك حتى بانت نواجذه، نعم كيف لا يضحك وأنثى من صحابته تفوقت على الرجال شجاعةً وإقدامًا.

شهدت صفية بعد ذلك غزوة بني قريظة مع عدد من الصحابيات منهن أم عمارة وأم سعد بن معاذ وسُميراء بنت قيس، كما شهدت غزوة خيبر مع عشرين صحابية رافقن الجيش إلى خيبر منهن أم سلمة زوجة النبي صلى الله عليه وسلم وأم عمارة نسيبة بنت كعب وأم سليم

بنت ملحان وأم عطية الأنصارية وسهلة بنت عاصم، سهلة هذه كانت حاملًا خرجت مع الجيش فوضعت وليدها في خيبر.

طبعًا شهود النساء للغزوات مع النبي صلى الله عليه وسلم كان من أجل رعاية أمور الجيش من سقاية وطعام وتمريض، ولكن هذا لا يعني أنهن لم يشاركن فعليًا في الجهاد، بل والحق يقال: أنهن في كثير من الأحيان كن يقاتلن الأعداء إذا حمي الوطيس واشتد الجد واحتاج الأمر إلى سندهن ومعونتهن ودعمهن. هذا واضح من فعل الصحابية نسيبة بنت كعب في غزوة أحد والصحابية أم سليم بنت ملحان في غزوة حنين.

جرى خلاف بين العلماء هل كان النبي صلى الله عليه وسلم يُسهم للنساء اللواتي يخرجن معه في الجهاد من أجل خدمة الجيش ولو لم يشاركن في قتال؟ أم أنه كان يكتفي بإكرامهن بما تيسر له من الغنائم؟ يرجح البعض أنه كان يُسهم للنساء تمامًا كما يُسهم للمقاتلين من الرجال، في هذا إشارة واضحة إلى أن المرأة تساوي الرجال وأنها لا تقل عنهم شأنًا.

قبل أن نُسدل الستار على سيرة السيدة صفية أحببت أن أنقل لكم أبياتًا بليغة رثت به النبي صلى الله عليه وسلم حين وفاته قالت فيها:

ألا يا رسول الله كنت رجاءنا**** وكنت بنا براً ولم تك جافيا

وكان بنا برا رحيماً نبينا**** ليبك عليك اليوم من كان باكيا

لعمري ما أبكي النبي لموته**** ولكن لهرج كان بعدك آتيا

كان على قلبي لفقد محمد**** ومن حبه من بعد ذاك المكاويا

أفاطم صلى الله ربُّ محمد**** على جدث أمسى بيثرب ثاويا

أرى حسناً أيتمته وتركته**** يبكي ويدعو جده اليوم نائيا

فدى لرسول الله أمي وخالتي**** وعمي ونفسي قصره وعياليا

صبرت وبلغت الرسالة صادقاً **** ومت صليب الدين أبلج صافيا

فلو أن رب العرش أبقاك بيننا **** سعدنا ولكن أمره كان ماضيا

عليك من الله السلام تحية **** وأدخلت جنات من العدن راضيا.

فيا لها من أبيات تنبع من قلبٍ محبٍ عاشق ولهان لنبي كريم رؤوف رحيم، لا يكمل إيمان المرء إلا إذا أحبه أكثر من النفس والمال والولد.

وفي خلافة عمر رضي الله عنه توفيت السيدة صفية عن عمر يناهز 73 عامًا، لك منا السلام! لك منا السلام أيتها الشجاعة الجريئة، لك منا التحية أيتها الشاعرة البليغة، ورضي الله عنك يا عمة الرسول المصطفى.

الملكة المؤمنة

(آسيا بنت مزاحم)

نشأت ملكة في القصور، واعتادتْ حياة الملوك، ورأَتْ بطش القوة، وجبروت السلطان، وطاعة الأتباع والرعية، غير أن الإيمان أضاء فؤادها، ونوَّر بصيرتها، فسئمتْ حياة الضلال، واستظلتْ بظلال الإيمان، ودعتْ ربها أن ينقذها من هذه الحياة، فاستجاب ربها دعاءها، وجعلها مثلا للذين آمنوا، فقال :(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلا لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[التحريم: 11 .[

وقال رسول اللَّه (: "أفضل نساء أهل الجنة :خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم، وآسيا)،إنها آسيا بنت مزاحم -امرأة فرعون- التي كانت أنموذجًا خلّده القرآن للمؤمنة الصادقة مع ربها، فهي عندما عرفت طريق الحق اتبعتْه دون خوف من الباطل، وظلم أهله،

فلقد آمنت باللَّه إيمانًا لا يتزعزع ولا يلين، ولم تفلح تهديدات فرعون ولا وعيده في ثنيها عن إيمانها، أو إبعادها عن طريق الحق والهدي، لقد تاجرتْ مع اللَّه، فربحَتْ تجارتها، باعتْ الجاه والقصور والخدم، بثمن غال، ببيتٍ بالجنة، في الآخرة ونعم أجر المؤمنين.

وقد جاء ذكر السيدة آسيا - رضي اللَّه عنها - في قصة موسى - عليه السلام - حينما أوحى اللَّه إلى أُمِّه أن تضعه في صندوق ثم تلقيه في البحر، ويلْقِي به الموج نحو الشاطئ الذي يطلّ على قصر فرعون؛ فأخذته الجواري، ودخلن به القصر، فلما رأت امرأة فرعون ذلك الطفل في الصندوق؛ ألقى الله في قلبها حبه، فأحبته حبًّا شديدًا.

وجاء فرعون ليقتله - كما كان يفعل مع سائر الأطفال الذين كانوا يولدون من بني إسرائيل.

فإذا بها تطلب منها أن يبقيه حياً؛ ليكون فيه العوض عن حرمانها من الولد.

وهكذا مكن اللَّه لموسى أن يعيش في بيت فرعون، قال تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِ ولا تحزني إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ(7) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ(8) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُون) [القصص 7-9.]

وكانت السيدة آسيا ذات فطرة سليمة، وعقل واعٍ، وقلب رحيم، فاستنكرت الجنون الذي يسيطر على عقل زوجها، ولم تصدق ما يدعيه من أنه إله وابن آلهة.

وحينما شَبَّ موسى وكبر، ورحل إلى "مدين"، فرارًا من بطش فرعون وجنوده ثم عاد إلى مصر مرة أخرى - بعد أن أرسله اللَّه - كانت امرأة فرعون من أول المؤمنين بدعوته . ولم يخْفَ على فرعون إيمان زوجته باللَّه، فجن جنونه، فكيف تؤمن زوجته التي تشاركه حياته، وتكفر به، فقام بتعذيبها حيث عَزَّ عليه أن تخرج زوجته على عقيدته، وتتبع عدوه، فأمر بإنزال أشد أنواع العذاب عليها؛ حتى تعود إلى ما كانت عليه، لكنها بقيت مؤمنة بالله، واستعذبت الآلام في سبيل اللَّه.

وقد أمر فرعون جنوده أن يطرحوها على الأرض، ويربطوها بين أربعة أوتاد، وأخذت السياط تنهال على جسدها، وهى صابرة محتسبة على ما تجد من أليم العذاب، ثم أمر بوضع رحًى على صدرها، وأن تُلقى عليها صخرة عظيمة، لكنها دعتْ ربها أن ينجيها من فرعون وعمله.

فاستجاب اللَّه دعاءها، وارتفعت روحها إلى بارئها، تظلِّلُها الملائكة بأجنحتها؛ لتسكن في الجنة. فقد آمنت بربها، وتحملت من أجل إيمانها كل أنواع العذاب. فاستحقت أن تكون من نساء الجنة الخالدات.

وصدق رسول اللَّه حين قال:"كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسيا امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام" (البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة(

الصحابية الجليلة أم الشهداء...

الخنساء

ضيفتنا الكريمة اليوم ضربت المثل والقدوة في الصبر والرضا بقضاء الله وقدره، وفي الشعر غلبت فحول الشعراء، إنها تماضر بنت عمرو بن الحارث المعروفة باسم الخنساء بنت عمرو (575 - 664) وكانت تسكن في إقليم نجد ولقبت بهذا الاسم بسبب ارتفاع أرنبتي أنفها.

والخنساء من أشهر شعراء الجاهلية، وقد طغى على شعرها بعد مقتل أخويّها معاوية وصخر الحزن والأسى والفخر والمدح، وقال عنها النابغة الذبياني: "الخنساء أشعر الجن والإنس" .

وأقبلت الخنساء على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع وفد من قومها وأعلنت إسلامها، وكان عليه الصلاة والسلام يستمع إلى شعرها.

سألها عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يوماً: ما أقرح مآقي عينيك؟

قالت: بكائي على السادات من مضر.

قال: هم في النار يا خنساء .

قالت: كنت أبكي لهم من الثأر، واليوم أبكي لهم من النار.

وقد أدت الخنساء رضي الله عنها فريضة الحج في خلافة عمر، وعندما لامها على ارتداء ملابس الجاهلية حزناً على أخويها، أنشدت قصيدة تعجّب منها عمر لبلاغتها وقال لأصحابه: دعوها، فإنها لا تزال حزينة.

ويروى أن الخنساء دخلت يوماً على السيدة عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - وهي ترتدي خماراً ممزقاً وصداراً من الصوف، وهي

ملابس الحداد للنساء على الراحلين في الجاهلية وتدب على عصاها من الكبر، ودار بينهما الحوار التالي:

-يا خنساء .

- لبيك يا أماه .

- أتلبسين هذا الرداء وقد نهى عنه الإسلام؟

- لم أعلم بهذا .

- وما الذي دفعك إلى هذه الحال؟

- موت أخي صخر.

وهنا كشفت الخنساء خصال أخيها صخر، وسر حزنها عليه للسيدة عائشة رضي الله عنها، حيث كان زوجها مقامراً متلافاً وأراد أن يغادر أو يسافر فطلبت منه الانتظار، على أن تطلب المساعدة من أخيها صخر - وهو أخ من أب - وعندما سألته شاطرها ماله (أي أعطاها نصفه) فأعطته لزوجها فقامر به وخسر.

وعادت إلى شقيقها تشكو حالها، فكرر معها صخر ما سبق، وكرر زوجها ما فعل .

وفي المرة الثالثة تدخلت زوجة صخر، وكان اسمها سلمى، وطلبت منه أن يكف عن مساعدة هذا الزوج المقامر، وأن يعطي أخته القليل على قدر حاجتها، فأنشد شعراً يؤكد فيه أن مساعدتها واجبة عليه، لأن أخته أولاً صانت شرفه بعفتها وسيرتها الطيبة، وتخاف عليه وهو على قيد الحياة، وتحزن عليه إذا مات ،وأعطى صخر نصف ماله إلى أخته، ووفت هي بعهدها وقالت: والله لا أخلف ظنه ما حييت.

ومما سبق يظهر سر حزن الخنساء على أخيها صخر وهو أخ من أب، كما سبق القول أكثر من حزنها على أخيها لأمها معاوية، رغم رحيل الشقيقين قتيلين، فصخر كان أكثر عطفاً عليها ورعاية لها، هذا فضلاً عن أنها تشعر بالذنب حيث حرضته على الثأر لأخيه الذي مات مقتولاً مما تسبب في إصابته إصابة أدت إلى موته .

ومما قالته في رثائه وهي ترسم صورته وتحدد أوصافه:

ما بال عينك منها دمعها سرب

أراعها حَزَن أم عادها طرب

أم ذكر صخر بعيد النوم هيجها

فالدمع منها عليه الدهر ينسكب

يا لهف نفسي على صخر إذا ركبت

خيلاً لخيل تنادي ثم تضطرب

قد كان حصناً شديد الركن ممتنعاً

ليثاً إذا نزل الفتيان أو ركبوا

أغر أزهر مثل البدر صورته

صاف عتيق فما في وجهه ندب

يا فارس الخيل إذ شدت رحائلها

ومطعم الجوع الهلكى إذا سغبوا

من أعظم المواقف التي تسجل للنساء صبرهن على رحيل فلذات أكبادهن في ساحات الجهاد والكفاح الوطني، وقد سجلت الخنساء اسمها بحروف من نور في قائمة الأمهات الصابرات المحتسبات، حيث

ابتليت برحيل أولادها الأربعة (عمرة، وعمرو، ومعاوية ويزيد) في معركة القادسية وكانت مثالاً للأم الصابرة الثابتة قوية الإيمان .

وكانت قد حثت أبناءها الأربعة على القتال دفاعاً عن الدين والوطن حيث تنقل لنا الروايات الموثقة أنها وقبل بدء القتال أوصتهم فقالت: "يا بني لقد أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين، والله الذي لا إله إلا هو إنكم بنو امرأة واحدة، ما خنت أباكم، ولا فضحت خالكم"، إلى أن قالت: "فإذا أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها، وجعلت ناراً على أوراقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها، تظفروا بالغنم والكرامة في دار الخلد والقيامة" .

وعندما دارت المعركة استشهد أولادها الأربعة واحداً تلو الآخر، وحينما بلغ الخنساء خبر مقتل أبنائها الأربعة كانت نعم الأم المؤمنة الصابرة ورددت كلمات تعبر عن عمق إيمانها.

وهكذا كانت وصية الخنساء الأم المسلمة المؤمنة لفلذات كبدها قبل المعركة وصية خالدة تجسد قوة إيمانها وصبرها وحبها لأولادها، فما أعظم الشهادة دفاعاً عن الدين والوطن والكرامة .

وكان الأبناء الشهداء نعم الأبناء حيث كانوا في الصباح الباكر في مقدمة الصفوف ينفذون وصية الأم الحكيمة، ولما بلغها خبرهم قالت كلماتها المأثورة التي عاشت على جبين الزمان على مدار الأيام والأعوام: "الحمد لله الذي شرفني باستشهادهم جميعاً في سبيل الله ونصرة دينه وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته" .

لم يكتب الله لها شرف الشهادة في ميادين القتال، لكنه كتب لها أجراً وثواباً يفوق أجر من ضحى بروحه فداء لدينه أو وطنه أو دفاعاً

عن حرماته وكرامته جزاء ما صبرت على فراق أبنائها الأربعة الذين استشهدوا واحداً تلو الآخر في معركة القادسية التي تعتبر من أهم المعارك المصيرية في تاريخ الإسلام .

في سوق عكاظ كان النابغة الذبياني يجلس تحت قبة حمراء، ويستمع إلى قصائد الشعراء ويحكم بينهم ويحدد مراتبهم، وفي إحدى السنوات أنشدت الخنساء قصيدتها الرائعة في رثاء أخيها صخر التي تقول في مطلعها:

قذى بعينيك أم بالعين عوار

أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدار

كأن عيني لذكراه إذا خطرت

فيض يسيل على الخدين مدرار

وأعجبت القصيدة النابغة وقال لها: لولا أن الأعشى أنشد قبلك، لفضلتك على شعراء هذه السنة، فغضب حسان بن ثابت وقال: أنا أشعر منك ومنها.

فطلب النابغة من الخنساء أن تجادله، فسألته: أي بيت هو الأفضل في قصيدتك فقال:

لنا الجفنات الغر يلمعن في الضحى

وأسيافنا يقطرن من نجدة دماً

قالت له: إن في هذا البيت سبعة من مواطن الضعف .

قال: كيف؟

فقالت الخنساء: الجفنات دون العشر، ولو قلت الجفان لكان أكثر، وقلت "الغر" والغرة بياض في الجبهة، ولو قلت "البيض" لكان

البياض أكثر اتساعاً، وقلت "يلمعن"، واللمعان انعكاس شيء من شيء، ولو قلت "يشرقن" لكان أفضل، وقلت "بالضحى" ولو قلت "الدجى" لكان المعنى أوضح وأفصح، وقلت "أسيافاً" وهي دون العشرة، ولو قلت "سيوف" لكان أكثر، وقلت "يقطرن" ولو كانت "يسلن" لكان أفضل، فلم يجد حسان كلمة يرد بها .

كانت حياة الخنساء حافلة بالحزن والصبر على أبنائها الشهداء وأخويها القتيلين، وكانت أيضاً حافلة بالإبداع الشعري، وتدفقت من أشعارها كل ألوان الحكمة وظلت تعطي في شيبتها حتى ماتت في أول خلافة عثمان بن عفان، رضي الله عنه (سنة 24 هجرية - 646 ميلادية)

من أعظم الشهداء ماشطة ابنة فرعون

لما أُسري بالنبي شمَّ ريحًا طيبة، فقال: "يا جبريل ما هذه الريح الطيبة؟"، قال: "هذه ريح قبر الماشطة وابنيها وزوجها" [ابن ماجة].
انتشر أمر موسى- عليه السلام - وكثر أتباعه، وأصبح المؤمنون برسالته خطرًا مستمرّا، يهدد فرعون ومُلكه، وظل فرعون في قصره في حالة غليان مستمر يمشى جيئة وذهاباً، يفكر في أمر موسى، وماذا يفعل بشأنه وشأن أتباعه، فأرسل في طلب رئيس وزرائه هامان؛ ليبحثا معًا ذلك الأمر، وقررا أن يقبض على كل من يؤمن بدعوة موسى، وأن يعذب حتى يرجع عن دينه، فسخَّر فرعون جنوده في البحث عن المؤمنين بدعوة موسى، وأصبح قصر فرعون مقبرة للأحياء من المؤمنين باللَّه الموحدين له، وكانت صيحات المؤمنين وصرخاتهم ترتفع من شدة الألم، ووطأة التعذيب تلعن الظالمين وتشكو إلى ربها صنيعهم، وشمل التعذيب جميع المؤمنين، حتى الطفل الرضيع لم ترحمه يد التعذيب، فزاد البلاء، واشتد الكرب على المؤمنين، فاضطر كثير منهم إلى كتمان إيمانه؛ خوفًا من فرعون وجبروته واستعلائه في الأرض، ولجأ الآخرون إلى الفرار بدينهم بعيدًا عن أعين فرعون وكان في قصر فرعون امرأة تقوم بتمشيط شعر ابنته وتجميلها، وكانت من الذين آمنوا وكتموا الإيمان في قلوبهم، وذات مرة كانت المرأة تمشط ابنة فرعون كعادتها كل يوم، فسقط المشط من يدها على الأرض، ولما همَّت بأخذه من الأرض، قالت: بسم اللَّه، فقالت لها ابنة فرعون: أتقصدين أبي؟ قالت: لا، ولكن ربي ورب أبيك اللَّه. فغضبَتْ ابنة فرعون من الماشطة وهددتها بإخبار أبيها بذلك، ولكن الماشطة لم تخف، فأسرعت البنت لتخبر أباها بأن هناك في القصر من يكْفُر به، فلما سمع فرعون ذلك؛ اشتعل غضبه، وأعلن أنه سينتقم منها ومن أولادها، فدعاها، وقال لها : أَوَ لكِ ربٌّ غيري؟! قالت: نعم، ربي وربك اللَّه.

وهنا ثارت ثائرته، فأمر بإحضار وعاء ضخم من نحاس وملأه بالزيت وإيقاد النار تحته، وإلقاءها هي وأولادها فيه، فما كان من المرأة إلا أن قالت لفرعون: إن لي إليك حاجة، فقال لها: وما حاجتك؟ قالت: أحب أن تجمع عظامي وعظام ولدي في ثوب واحد وتدفننا، فقال: ذلك علينا، ثم أمر بإلقاء أولادها واحدًا تِلْوَ الآخر، والأم ترى ما يحدث لفلذات كبدها، وهى صابرة محتسبة، فالأولاد يصرخون أمامها، ثم يموتون حرقًا، وهي لا تستطيع أن تفعل لهم شيئًا، وأوشك الوهن أن يدب في قلبها لما تراه وتسمعه، حتى أنطق اللَّه -عز وجل- آخر أولادها -وهو طفل رضيع- حيث قال لها: يا أماه، اصبري، إنك على الحق. فاقتحمتْ المرأة مع أولادها النار، وهى تدعو اللَّه أن يتقبل منها إسلامها، فضَربتْ بذلك مثالاً طيبًا للمرأة المسلمة التي تعرف اللَّه حق معرفته، وتتمسك بدينها، وتصبر في سبيله، وتمُتَحن بالإرهاب فلا تخاف، وتبتلى بالعذاب فلا تهن أو تلين، وماتت ماشطة ابنة فرعون وأبناؤها شهداء في سبيل الله، بعدما ضربوا أروع الأمثلة في التضحية والصبر والفداء.

الزوجة الوفية زوجة أيوب عليه السلام

زوجة صابرة أخلصت لزوجها، ووقفت إلى جواره في محنته حين نزل به البلاء، واشتد به المرض الذي طال سنين عديدة، ولم تُظْهِر تأفُّفًا أو ضجرًا، بل كانت متماسكة طائعة، إنها زوجة نبي اللَّه أيوب - عليه السلام - الذي ضُرب به المثل في الصبر الجميل، وقُوَّة الإرادة واللجوء إلى اللَّه، والارتكان إلى جنابه.

وكان أيوب -عليه السلام- مؤمنًا قانتًا ساجدًا عابدًا لله، بسط اللَّه له في رزقه، ومدّ له في ماله، فكانت له ألوف من الغنم والإبل، ومئات من البقر والحمير، وعدد كبير من الثيران، وأرض عريضة، وحقول خصيبة، وكان له عدد كبير من العبيد يقومون على خدمته، ورعاية أملاكه، ولم يبخل أيوب -عليه السلام- بماله، بل كان ينفقه، ويجود به على الفقراء والمساكين .

وأراد اللَّه أن يختبر أيوب في إيمانه، فأنزل به البلاء، فكان أول مانزل به ضياع ماله وجفاف أرضه؛ حيث احترق الزرع وماتت الأنعام، ولم يبق لأيوب شيء يلوذ به ويحتمي فيه غير إعانة الله له، فصبر واحتسب، ولسان حاله يقول في إيمان ويقين: عارية اللَّه قد استردها، ووديعة كانت عندنا فأخذها، نَعِمْنَا بها دهرًا، فالحمد لله على ما أنعم، وَسَلَبنا إياها اليوم، فله الحمد معطيا وسالبًا، راضيا وساخطًا، نافعًا وضاراً، هو مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، ثم يخرُّ أيوب ساجدًا لله رب العالمين.

ونزل الابتلاء الثاني، فمات أولاده، فحمد اللَّه -أيضًا- وخَرّ ساجدًا لله، ثم نزل الابتلاء الثالث بأيوب -فاعتلت صحته، وذهبت عافيته،

وأنهكه المرض، لكنه على الرغم من ذلك كله ما ازداد إلا إيمانًا، وكلما ازداد عليه المرض، ازداد شكره لله.

وتمر الأعوام على أيوب -عليه السلام- وهو لا يزال مريضًا، فقد هزل جسمه، ووهن عظمه، وأصبح ضامر الجسم، شاحب اللون، لا يقِرُّ على فراشه من الألم، وازداد أمله حينما بَعُدَ عنه الصديق، وفَرَّ منه الحبيب، ولم يقف بجواره إلا زوجته العطوف تلك المرأة الرحيمة الصالحة التي لم تفارق زوجها، أو تطلب طلاقها، بل كانت نعم الزوجة الصابرة المعينة لزوجها، فأظهرت له من الحنان ما وسع قلبها، واعتنت به ما استطاعت إلى ذلك سبيلا.

لم تشتكِ من هموم آلامه، ولا من مخاوف فراقه وموته، وظلت راضية حامدة صابرةً مؤمنةً، تعمل بعزم وقوة، لتطعمه وتقوم على أمره، وقاست من إيذاء الناس ما قاست، ومع أن الشيطان كان يوسوس لها دائمًا بقوله: لماذا يفعل اللّه هذا بأيوب، ولم يرتكب ذنبًا أو خطيئة؟ فكانت تدفع عنها وساوس الشيطان وتطلب من الله أن يعينها، وظلت في خدمة زوجها أيام المرض سبع سنين، حتى طلبت منه أن يدعو اللّه بالشفاء، فقال لها: كم مكثت في الرخاء؟ فقالت: ثمانين. فسألها: كم لبثتُ في البلاء؟ فأجابت: سبع سنين .

قال: أستحي أن أطلب من اللّه رفع بلائي، وما قضيتُ منه مدة رخائي، ثم أقسم أيوب -حينما شعر بوسوسة الشيطان لها- أن يضربها مائة سوط، إذا شفاه اللّه، ثم دعا أيوب ربه أن يكفيه بأس الشيطان، ويرفع ما فيه من نصب وعذاب، قال تعالى: (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) [ص : 41].فلما رأى اللّه صبره البالغ، رد عليه عافيته، حيث أمره أن يضرب برجله، فتفجر له نبع ماء، فشرب منه واغتسل، فصح جسمه وصلح بدنه، وذهب عنه

المرض، قال تعالى : (وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِي الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (41) ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ(42) وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَى لِأُوْلِى الأَلْبَاب(43)) [ص:41-43] .

ومن رحمة اللَّه بهذه الزوجة الصابرة الرحيمة؛ أَن أَمَرَ اللَّهُ أيوبَ أن يأخذ حزمة بها مائة عود من القش، ويضربها بها ضربةً خفيفةً رقيقةً مرة واحدة ليبرّ قسمه، جزاء له ولزوجه على صبرهما على ابتلاء اللَّه (وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إنا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)[ص: 44]

الملكة بلقيس

هي بلقيس بنت شرحبيل بن مالك بن الريان، ملكة سبأ تمكنت من الملك بعد مقتل عمرو ذي الأذعار، فبايعها قومها وولوها الحكم، فأدارت شؤون البلاد بشجاعة وحكمة، ورممت سد مأرب الشهير، وشيدت قصرها في مدينة مأرب، وازدهرت على يديها التجارة والزراعة، وزادت ثروات البلاد واستقرت أحوال الناس.

كانت تعبد الشمس هي وقومها، ثم أكرمها الله تعالى بالإيمان، فآمن قومها برسالة نبي الله سليمان - عليه السلام- فتزوجها سليمان- عليه السلام- وأنجبتْ له ولدًا، إلا أنه توفي شابًّا، وتوفيت بعده بلقيس في أنطاكية -رضي الله عنها-.

ذات يوم استيقظتْ من نومها والظلام يحيط بكل شيء؛ لتستعدَّ للذهاب مع حاشيتها إلى معبد الشمس الكبير بأرض مأرب على بُعْدِ ثلاثة أميال من صنعاء؛ حيث يستقبل شعب سبأ يومًا من الأيام المقدسة التي تشهد نشاطًا كبيرًا فيقدمون قرابينهم للشمس التي يعبدونها من دون اللَّه. وما إن أشرقت الشمس حتى اخترق نداء الكاهن آذان أهل سبأ يأمرهم بالسجود لها ، في الوقت الذي كان يسجد فيه أهل سبأ للشمس، كان نبي اللَّه سليمان -عليه السلام - وجنوده يسجدون للَّه رب العالمين ، اعترافًا بحقه -عز وجل- .

وقد وهب اللَّه لسليمان ملكًا عظيمًا، وكوَّن سليمان جيشًا عظيمًا، من الإنس والجن والطير، وجعل لكل واحد في الجيش مكانًا ومهمةً عليه أن ينفذها.

واعتاد سليمان -عليه السلام- أن يتفقد جنوده حينًا بعد آخر، وذات مرة لم يجد الهدهد، فقال الله تعالى في كتابه الكريم على لسان

نبيه : (مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ)[النمل:20-21]. فجاء الهدهد بعد أن مكث فترة من الزمن، فقال لسليمان -عليه السلام- :(فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ(22)إني وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ(23) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24))[النمل: 22-24].

ثم أخذ الهدهد يصف ما رأى وما سمع وكيف يعبدون الشمس من دون اللَّه ، ففكر نبي اللَّه...

ثم قال كما ورد في القران الكريم على لسانه : (سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين) [النمل: 27].

عرف الهدهد بفطرته السليمة أن السجود لا يكون إلا للَّه سبحانه وتعالى، كما عرف أهمية الدعوة إلى اللَّه تعالى، وكيف يتحرك لها حتى وإن لم يكلفه أحد بهذا العمل، وهكذا يكون الداعية دائمًا في كل مكان وزمان، وبعد ذلك كتب نبي اللَّه عليه السلام رسالة، وأمر الهدهد بالذهاب إلى ملكة سبأ وأن يعطيها الرسالة، فقال له: (اذْهَب بكتابي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُون) [النمل:28]

وبينما كانت بلقيس تستريح من عناء يوم طويل في فراشها، دخل عليها الهدهد من النافذة، وألقى عليها الكتاب، فقرأته وعلمت مافيه، وأنه من نبي اللَّه سليمان - عليه السلام -، فجمعت وزراءها وأعيان قومها وقرأت عليهم خطاب سليمان، وقالت : (قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ إني أُلْقِي إِلَيَ كِتَابٌ كَرِيمٌ(29) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ(30) أَلَّا تَعْلُوا عَلَي وأتوني مُسْلِمِينَ) [النمل: 29- 31]، ثم طلبت منهم الرأي والمشورة بقولها : (قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ أفتوني في أمري مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ) [النمل: 32].

وهي في ذلك تعطى صورة طيبة للشورى عند الحاكم ، فأجابها القوم (قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فانظري مَاذَا تَأْمُرِينَ)[النمل:33] ، لكن بلقيس كانت تعلم قوة سليمان، فأرادت أن تصرف قومها عن الحرب، وأن تردهم إلى الرشاد، فقالت : (قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) [النمل: 34]،كان يدور في ذهن بلقيس أمر سليمان، ولم تكن تعلم أن الله سخَّر له الريح تجرى بأمره، فقالت بحكمة بالغة وحسن تدبير: (وإني مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ)[النمل:35] وأخبرتهم؛ أنه إن كان ملكًا قبل الهدية وانصرف، وإن كان نبيا فلن يقبل الهدية، ولن يرضى منا إلا أن نتبعه على دينه ووافق القوم على ذلك، وانصرفوا.

فلما جاءت رُسل بلقيس بالهدية إلى سليمان، قال لهم : (أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتاني اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُون) [النمل: 36] ، وكيف يقبل الهدية وقد أكرمه الله بالنبوة والحكمة، وأعطاه الله ما لم يعط أحدًا من العالمين؟! فقال لرئيس الوفد: (ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فلتأتينهم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا ولتخرجنهم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُون) [النمل: 37]

وأدرك سليمان بحكمته أن إنذاره هذا سينهي الأمر، وستُقبل عليه الملكة مستسلمة طائعة؛ لأنه ظهر من تصرفاتها أنها لا تريد الحرب، وعندما عادوا إليها أخبروها بماحدث، فأرسلت إلى سليمان تخبره أنها سوف تأتى إليه ومعها كبار قومها، وأمرت بلقيس جنودها بحراسة عرشها والحفاظ عليه وإغلاق الأبواب دونه، وخرجت من مُلْكها متجهة ناحية الشمال، وقبيل حضورها، أراد سليمان أن يبين لها قدرة اللَّه وعظمته، وكيف أعطاه مالم يعط أحدًا من العالمين فأقبل على جنوده قائلا: (قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يأتيني بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يأتوني مُسْلِمِينَ(38)قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وإني عَلَيْهِ لَقَوِى أَمِينٌ (39))[النمل: 38-39]

لكن سليمان استبطأه، فقام رجل مؤمن من بني إسرائيل، وكان صدِّيقًا يعلم اسم الله الأعظم، فقال لسليمان: (أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ)[النمل: 40]

وبالفعل كان عرش بلقيس أمام نبي اللَّه سليمان فخر ساجدًا لعظمة اللَّه، واعترافًا بنعمته، وقال :(هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي ليبلوني أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِي كَرِيمٌ) [النمل: 40].

ورأت بلقيس مُلكَ سليمان، وبينما قومها يتهامسون فيما بينهم على ما يروَنه، رأت عرشها بعد أن أمر سليمان جنوده أن يغيروامعالمه، وأن يبدلوا أوضاعه بحيث تختلف فيه الرؤية، ليعرف مدى ذكائها(قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أتهتدي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ(41) فَلَمَّا جَاءتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ(42))[النمل: 41-42].

فلما دخلت بلقيس الصرح الذي أمر نبي اللَّه سليمان جنوده ببنائه من الزجاج بحيث يجرى من تحته جدول صغير من الماء حسبته لجة (أي ماء) فكشفت عن ساقيها بحركة لاشعورية منها: (قِيلَ لَهَا ادخلي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِير)[النمل:44].

فلما رأت بلقيس ما وهبه اللَّه لنبيه سليمان قالت : (قَالَتْ رَبِّ إني ظَلَمْتُ نفسي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين) [النمل: 44].

وهكذا كانت بلقيس ملكة سبأ امرأة ذات فراسة وحكمة وذكاء، فلم تستبد برأيها في الأمور العظيمة والخطوب الجليلة، بل استشارت قومها، وهذا يدل على فطنتها فلما عرفت الحق آمنت به وأسلمت للَّه طوعًا مع سليمان عليه السلام.

أم الحبيب(أم أيمن)

إنها أم أيمن بركة بنت ثعلبة بن عمرو بن حصن، وكانت تعرف بالحبشية، وهى وصيفة (خادمة) عبد الله بن عبد المطلب والد النبي عليه السلام، فلما مات صارت لزوجته آمنة بنت وهب أم النبي عليه السلام ، فظلّت تُكِنّ لها كل إخلاص ومحبة صادقة، وسافرت معها ومع ابنها محمد- عليه السلام- إلى يثرب لزيارة قبر زوجها عبد اللَّه، ولما عادوا مرضت أم النبي عليه السلام، وماتت في الطريق، فدفنتها أمّ أيمن في مكان يعرف بالأبواء، وسط الصحراء في الطريق بين مكة والمدينة، وحملتْ النبي عليه السلام إلى جده عبدالمطلب، وظلتْ تخدمه وتسهر على راحته؛ حتى تزوج السيدة خديجة بنت خويلد - رضي اللَّه عنها-، فانتقلت معه إلى منزلها، وكانت موضع احترامٍ وتقديرٍ منهما.

وهي إحدى المهاجرات الأُوَل، كان رسول اللَّه يناديها: "يا أمَّه"، وكان إذا نظر إليها، يقول: "هذه بقية أهل بيتي" [ابن سعد والحاكم]. وكان النبي عليه السلام يزورها دائمًا، ويكرمها، ويقول عنها: "أم أيمن أمي، بعد أمي". وكانت هي سعيدة بهذا الأمر، وتعيشه كأنه حقيقة، فكانت تحنو عليه حنان الأم على ابنها، وتخشى عليه خشيتها، وتغضب أحيانًا عليه

كما تغضب الأم، فعن أنس- رضي الله عنه - قال: انطلق بنا رسول الله إلى أم أيمن، فانطلقت معه، فناولته إناء فيه شراب ، قال: فلا أدري أصادفته صائمًا أو لم يُرِدْه، فجعلت تصخب عليه (تصرخ فيه) وتذمر عليه (تكلمه بحدة وغضب) وما كانت لتفعل ذلك مع رسول الله إلا وهو يعلم أنه بمثابة الابن، فهي قد حضنته وربته، هذه أم أيمن -رضي الله عنها- أحاطت رسول الله بحبها ورعايتها، وكانت أمَّه صغيرًا وكبيرًا،

فأكرمها اللَّه- سبحانه وتعالى بفضله، وجزاها خيرًا على جميلها، وحفظها كما حفظت النبي عليه السلام .

فتروى لنا قصة هجرتها إلى المدينة، ومدى حماية الله تعالى لها، فتقول: خرجتُ مهاجرة من مكة إلى المدينة، وأنا سائرة على رجلي، وليس معي زاد، فعطشتُ وكنتُ صائمة، فأجهدني العطش، فلما غابت الشمس إذا بإناء تعلّق عند رأسي مُدَلًّى برشاء (أي حبل) أبيض، فدنا مِنّي حتى إذا كان بحيث أستمكن منه، تناولته فشربتُ منه، حتى رَويت، فكنتُ بعد ذلك -في اليوم الحار- أطوف في الشمس؛ كي أعطش فما عطشتُ بعدها. [ابن سعد].

لما توفي النبي عليه السلام قال أبو بكر الصديق لعمر بن الخطاب- رضي اللَّه عنهما-: انطلقْ بنا نزْور أم أيمن، كما كان رسول اللَّه يزورها، فلما دخلا عليها بكت، فقالا: مايبكيك، فما عند اللَّه خير لرسوله؟ قالت: أَبْكِي أنّ وحْي السماء انقطع، فهيَّجتهما على البكاء، فجعلتْ تبكي ويبكيان معها. [مسلم وابن ماجة].

وعندما تقدم إليها عبيد بن زيد من بني الحارث بن الخزرج للزواج منها تكفلتْ السيدة خديجة بتجهيزها، وبعد عام من الزواج أنجبت منه ابنها (أيمن الذي تُكنى به دائمًا) وقد استشهد أيمن في موقعة خيبر، ولما توفي عبيد بن زيد -زوج أم أيمن- تقدم "زيد بن حارثة" للزواج بالسيدة أم أيمن، وزاد من رغبته فيها قول الرسول صلى الله عليه وسلم(: "من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة، فليتزوج أم أيمن" [ابن سعد]، فولدتْ له "أُسامة بن زيد" حِبّ رسول اللَّه ،وهي إحدى المؤمنات المجاهدات اللاتي شاركن في المعارك الإسلامية مع رسول الله؛ فقد شهدت أُحدًا، وكانت تسقي المسلمين، وتداوي الجرحى، وشهدت غزوة خيبر،وروت -رضي الله عنها- بعضًا من أحاديث رسول الله.

وتوفيت في آخر خلافة عثمان بن عفان -رضي اللَّه عنه- ودفنت بالمدينة بعد أن تجاوزت التسعين من عمرها.

الصحابية الجليلة أول شهيدة في الإسلام

(سمية بنت خياط)

ما إن سمعت بدعوة النبي عليه السلام حتى دخلتْ في دين الله تعالى، فلما راح المشركون يعذبون من آمن، فصبُّوا عليها من عذابهم قسطًا كبيرًا عساها ترتد وترجع، فأبت إلا الإسلام، فقتلوها، فكانت أول شهيدة في الإسلام؛إنها الصحابية الجليلة، سُمَيّة بنتُ خَيَّاط، زوجة ياسر، وأم عمار -رضي الله عنهم- كانت مولاة لأبي حذيفة بن المغيرة المخزومي، وكان ياسر حليفًا لأبي حذيفة، فزّوجه من سمية، فولدت له عَمّارًا، ولما ظهرتْ في مكة دعوةُ الإسلام سبقتْ إليها سمية وابنها عمار، ثم لحق بهما زوجها.

قال مجاهد: أول من أظهر الإسلام بمكة، سبعة: رسول الله، وأبو بكر، وبلال، وخَبَّاب، وصُهَيْب، وعمَّار، وسُمَيَّة، وأخذ أهل مكة يعذبون من أسلم، فقام آل بني المغيرة بتعذيب سمية؛ لترجع عن دينها، ولكن هيهات هيهات، فالإيمان قد استقر في قلبها، فلا يزحزحه أي تعذيب أو اضطهاد.

وكان صلى الله عليه وسلم يمر على المعذبين من المسلمين يوصيهم بالصبر، وكلما مرّ على سمية وزوجها ياسر، وابنهما عمار، وهم يعذبون العذاب الشديد يقول: "صبرًا آل ياسر، إن موعدكم الجنة" [الطبراني].

وإن كان صبر الرجال المسلمين على العذاب الشديد عجيبًا، فأعجب منه أن تصبر عليه امرأة، وصبرها على التمسك بدينها يهون إلى جانبه الصبر على الألم، مهما زاد واشتد، وذات يوم مرّ عليها أبو جهل فسمعها تردد كلمات الإيمان: أحد أحد، الله أكبر الله أكبر، فأمرها أن

تكفر بمحمد و دينه فأبت، فأخذ حربة فطعنها بها، فسقطت شهيدة، وكانت -رضي الله عنها- كبيرة السن، عظيمة الإيمان، ضعيفة الجسم، قوية اليقين، رمزًا للصمود، وأمارة على قوة العقيدة، فلما كان يوم بدر قتل أبو جهل، فقال النبي عليه السلام لعمار: "قتل الله قاتل أمِّك" [ابن سعد].

الصحابية المرأة من الحور العين

(أم رومان زوجة أبي بكر) أم عائشة أم المؤمنين

فقد قال عنها رسول اللَّه: "من سرّه أن ينظر إلى امرأة من الحور العين؛ فلينظر إلى أم رومان" [ابن سعد]. صحابية مجاهدة، ذات قلب طاهر ونفس طيبة، نزل رسول اللَّه قبرها، واستغفر لها وقال: "اللهمَّ لم يخْف عَليك ما لقيتْ أم رومان فيك وفي رسولك" [ابن حجر في الإصابة].

إنها أم رومان بنت عمر بن عويمر، من المسلمات الأُول، تزوجت من عبد اللَّه بن الحارث بن سخبرة، وأنجبت منه الطفيل، وكان قد قدم بها مكة، فحالف أبا بكر الصديق، ولما مات عبد اللَّه تزوجها أبو بكر الصديق؛ فأنجبت منه: عبد الرحمن وعائشة أم المؤمنين، وكان أبو بكر - رضي اللَّه عنه - متزوجًا قبلها، وعنده من الولد عبد اللَّه وأسماء رضي الله عنهما.

ولما بلغت عائشة -رضي الله عنها- تسع سنوات، ذهبت السيدة خَوْلَة بنت حكيم إلى أمها أم رومان، تقول لها: أي أم رومان، ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟ قالت أم رومان: وما ذاك؟ أجابت خَوْلَة: أرسلني رسول الله أخطب له عائشة، ومن ذلك الحين وأم رومان تتشرف بقرابة المصاهرة من الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان لها عنده مكانة خاصة لتُقَواها وإيمانها.

هاجرت أم رومان إلى المدينة مع ابنتها عائشة -رضي اللَّه عنهما- وفي طريق الهجرة هاج بَعِيرُ السيدة عائشة فصاحت أم رومان -وهي خائفة على ابنتها-: وابنتاه، واعروساه، فسكن البعير، ووصلت القافلة إلى

المدينة بسلام، وهناك أخبرت أم رومان ابنتها "عائشة" بأنها ستتزوج من النبي عليه السلام .

وكانت أم رومان تحب ابنتها عائشة حُبّا عظيمًا، ففي حديث الإفك أُغْمِي عليها؛ حُزْنًا على ما أصاب ابنتها، ولما أفاقت أخذت تدعو اللَّه أن يظهر الحق، وظلت تواسى ابنتها ودموعها تتساقط، وجعلت تقول: أي بنية !.. هوني عليك، فواللَّه لَقَلَّ ما كانت امرأة حسناء عند زوج يحبها ولها ضرائر إلا كثرن وكثر عليها الناس..وما إن انكشفت غمامة الإفك، حتى انشرح صدر أم رومان، وحمدت اللَّه على براءة ابنتها، وتكريم الله لها.

ولما كانت السنة السادسة من الهجرة توفيت أم رومان، فنزل النبي عليه السلام قبرها واستغفر لها اللَّه-رضي اللَّه عنها وأرضاها-، ورجح ابن حجر أنها ماتت بعد السنة الثامنة.

السيدة هاجر..

أم الذبيح

هناك.. في صحراء مكة القاحلة.. حيث لا زرع ولا ماء.. ولا أنيس ولا رفيق.. تركها زوجها هي ووليدها.. ثم مضى في طريق عودته، وترك لهم تمرًا وماءً، فنادته زوجته وهي تقول: يا إبراهيم! أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي، الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟! فلم يلتفت إليها الزوج، وكأنه على يقين من وعد الله الذي لا يتخلف ولا يخيب، فقالت الزوجة -وكأنها أدركت أن أمرًا ما يمنع زوجها من الرد عليها-: الله أمرك بهذا؟فيرد الزوج: نعم.

فقالت بإيمان واثق، ويقين بصِدْقِ وَعْدِ الله بدون تردد ولا قلق: إذن لن يضيعنا.

وانصرف إبراهيم -عليه السلام- وهو يدعو ربه ويقول: (ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون(37) ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفي على الله من شيء في الأرض ولا في السماء(38)) [إبراهيم 37-38.]

ونفد الماء والزاد، والأم لا تجد ما تروى به ظمأ طفلها، وقد جفّ لبنها فلا تجد ما ترضعه، فيتلوى الطفل جوعًا وعطشًا، ويصرخ، ويتردد في الصحراء والجبال صراخه الذي يدمي قلب الأم الحنون،وتسرع الأم وتصعد على جبل الصفا، لتنظر أحداً ينقذها هي وطفلها من الهلاك، أو تجد بعض الطعام أو الشراب، ولكنها لا تجد فتنزل مسرعة وتصعد جبل المروة، وتفعل ذلك سبع مرات حتى تمكن منها التعب، وأوشك اليأس أن يسيطر عليها، فيبعث الله جبريل -عليه

السلام- فيضرب الأرض بجناحه؛ لِتَخْرُجَ عينُ ماءٍ بجانب الصغير، فتهرول الأم نحوها وقلبها ينطلق بحمد الله على نعمته، وجعلت تغرف من مائها، وتحاول جاهدة إنقاذ فلذة كبدها، وتقول لعين الماء: زُمّي زُمّي، فسميت هذه العين زمزم، يقول النبي : "يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم لكانت زمزم عينًا معينًا" [البخاري.[

إنها هاجر، أمّ إسماعيل، وزوجة إبراهيم خليل الله - رضي الله عنها -، عُرِفَتْ في التاريخ بأمِّ العَرَب العدنانيين.

وَهَبَهَا ملكُ مِصرَ إلى السيدة سارة -زوج إبراهيم الأولى-، عندما هاجرا إلى مصر، ولما أدركت سارة أنها كبرت في السن، ولم تنجب، وهبت هاجر لزوجها ليتزوجها، عسى الله أن يرزقه منها الولد، وتزوج إبراهيم -عليه السلام- السيدة هاجر وبدت عليها علامات الحمل، ثم وضعت إسماعيل -عليه السلام- ووجدت الغيرة طريقها إلى قلب السيدة سارة، فكأنها أحست أنها فقدت المكانة التي كانت لها في قلب زوجها من قبل، فطلبت منه أن يأخذ السيدة هاجر بعيدًا عنها، فأخذها سيدنا إبراهيم -عليه السلام- إلى صحراء مكة، بأمرٍ من الله، ولحكمة يريدها عز وجل، وحدث ما حدث لها ولوليدها.

ومرت الأيام بطيئة ثقيلة، حتى نزل على هاجر وابنها إسماعيل بعض أناس من قبيلة "جُرْهُم" وأرادوا البقاء في هذا المكان؛ لما رأوا عندها الماء، فسمحت لهم بالسكن بجانبها، ومشاركتها في الشرب من ماء زمزم، واستأنست بهم، وشب الطفل الرضيع بينهم، وتعلم اللغة العربية منهم، ولما كبر تزوج امرأة منهم.

هذه هي هاجر أم الذبيح وأمّ العرب العدنانيين، رحلت عنا بعدما تركت لنا مثالا رائعًا للزوجة المطيعة، والأمّ الحانية، والمؤمنة القوية؛ فقد أخلصت النية للَّه تعالى، فرعاها في وحشتها، وأمَّنها في غيبة

زوجها، ورزقها وطفلها من حيث لا تحتسب، وقد جعل الله - سبحانه - ما فعلته السيدة هاجر - رضي الله عنها- من الصعود والسعي بين الصفا والمروة من أعمال الحج، قيل إنها توفيت وعندها من العمر 90 سنة، ودفنها إسماعيل -عليه السلام- بجانب بيت الله الحرام.

زوجة الفراسة والحياء

(زوجة موسى)

يقول ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: صاحب يوسف حين قال لامرأته: (أكرمي مَثْوَاهُ) [يوسف:21]، وصاحبة موسى حين قالت: (يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ) [القصص: 26]، وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب.

ولكن ما الذي أخرج موسى من مصر إلى أرض مدين في جنوب فلسطين؛ ليتزوج من ابنة الرجل الصالح، ويرعى له الغنم عشر سنين؟
كان موسى يعيش في مصر، وبينما هو يسير في طريقه رأى رجلين يقتتلان؛ أحدهما من قومه بني إسرائيل، والآخر من آل فرعون، وكان المصري يريد أن يسخِّر الإسرائيلي في أداء بعض الأعمال، واستغاث الإسرائيلي بموسى، فما كان منه إلا أن دفع المصري بيده فمات على الفور، قال تعالى: (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الذي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الذي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِين)[القصص: 15].
وفي اليوم التالي تشاجر اليهودي مع رجل آخر فاستغاث بموسى -عليه السلام- مرة ثانية فقال له موسى: إنك لَغَوِي مُبين؛ فخاف الرجل وباح بالسِّرِّ عندما قال: أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسًا بالأمس، فعلم فرعون وجنوده بخبر قتل موسى للرجل، فجاء رجل من أقصى المدينة يحذر موسى، فأسرع بالخروج من مصر، وهو يستغفر ربه قائلاً: (رَبِّ إني ظَلَمْتُ نفسي فَاغْفِرْ لي فغفر له إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [القصص :16].

وخرج موسى من مصر، وظل ينتقل حتى وصل إلى أرض مَدْين في

جنوب فلسطين، وجلس موسى -عليه السلام- بالقرب من بئر، ولكنه رأى منظرًا لم يعجبه؛ حيث وجد الرعاة يسقون ماشيتهم من تلك البئر، وعلى مقربة منهم تقف امرأتان تمنعان غنمهما عن ورود الماء؛ استحياءً من مزاحمة الرجال، فأثر هذا المنظر في نفس موسى؛ إذ كان الأولى أن تسقي المرأتان أغنامهما أولاً، وأن يفسح لهما الرجال ويعينوهما، فذهب موسى إليهما وسألهما عن أمرهما، فأخبرتاه بأنهما لا تستطيعان السقي إلا بعد أن ينتهي الرجال من سقي ماشيتهم، وأبوهما شيخ كبير لا يستطيع القيام بهذا الأمر، فتقدم ليسقي لهما كما ينبغي أن يفعل الرجال ذوو الشهامة، فزاحم الرجال وسقى لهما، ثم اتجه نحو شجرة فاستظل بظلها، وأخذ يناجي ربه: (رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير) [القصص: 24].

وعادت الفتاتان إلى أبيهما، فتعجب من عودتهما سريعًا، وكان من عادتهما أن تمكثا وقتًا طويلاً حتى تسقيا الأغنام، فسألهما عن السبب في ذلك، فأخبرتاه بقصة الرجل القوي الذي سقى لهما، وأدى لهما معروفًا دون أن يعرفهما، أو يطلب أجرًا مقابل خدمته، وإنما فعل ذلك مروءة منه وفضلا، وهنا يطلب الأب من إحدى ابنتيه أن تذهب لتدعوه، فجاءت إليه إحدى الفتاتين تمشي على استحياء لتبلغه دعوة أبيها: (إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا) [القصص: 25].

واستجاب موسى للدعوة، فلما وصل إلى الشيخ وقصّ عليه قصته، طمأنه الشيخ بقوله: (لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) [القصص: 25].

وعندئذ سارعت إحدى الفتاتين -بما لها من فراسة وفطرة سليمة، فأشارت على أبيها بما تراه صالحًا لهم ولموسى -عليه السلام-: (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِي الأَمِين)

[القصص: 26]، فهي وأختها تعانيان من رعي الغنم، وتريد أن تكون امرأة مستورة، لا تحتكّ بالرجال الغرباء في المرعى والمسقى، فالمرأة العفيفة الروح لا تستريح لمزاحمة الرجال، وموسى فتى لديه من القوة والأمانة ما يؤهله للقيام بهذه المهمة، والفتاة تعرض رأيها بكل وضوح، ولا تخشى شيئًا، فهي بريئة النفس، لطيفة الحسّ.

ويقتنع الشيخ الكبير لما ساقته ابنته من مبررات؛ بأن موسى جدير بالعمل عنده ومصاهرته، فقال له: (إني أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابنتي هَاتَيْنِ عَلَى أَن تأجرني ثماني حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ستجدني إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ(27) قَالَ ذَلِكَ بيني وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَي وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ(28))[القصص :27-28]،ولمَّا وَفَّى موسى الأجل وعمل في خدمة صِهْرِه عشر سنين، أراد أن يرحل إلى مصر، فوافق الشيخ ودعا له بالخير، فخرج ومعه امرأته وما أعطاه الشيخ من الأغنام، فسار موسى من مدين إلى مصر.

وهكذا كانت زوجة موسى - رضي اللَّه عنها - نموذجًا للمؤمنة، ذات الفراسة والحياء، وقدوة في اختيار الزوج الأمين الصالح .

صاحبة سر رسول اللّه

(حفصة بنت عمر)

لما فرغ زيد بن ثابت -رضي اللَّه عنه- من جمع القرآن بأمر من أبي بكر- رضي اللَّه عنه-، كانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر، حتى توفاه اللَّه، ثم عند عمر حتى توفاه اللَّه، ثم عند حفصة بنت عمر -رضي اللَّه عنها - ثم أخذها عثمان -رضي اللَّه عنه- فنسخها، ثم ردها إليها فكانت في حوزتها إلى أن ماتت.

وُلدت السيدة حفصة قبل بعثة النبي عليه السلام بخمس سنين، في بيت شريف كريم، فأبوها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وأمها السيدة زينب بنت مظعون بن حبيب.

أسلمتْ حفصة مبكرًا هي وزوجها خُنيس بن حذافة السهمي القرشي، وهاجرت معه إلى الحبشة فرارًا بدينهما، ثم إلى المدينة بعد أن بدأت الدعوة في الانتشار، وشهد زوجها بدرًا، ومات في غزوة أحد بعد جرح أصابه، وترك حفصة شابة لم تتجاوز عامها الحادية والعشرين، وبعد أن انقضت عدتها ذكرها عمر عند عثمان بن عفان، ثم أبي بكر، فلم يردا عليه بالقبول، فجاء عمر إلى النبي عليه السلام يشكو إليه إعراض أبي بكر وعثمان عن ابنته حفصة، فقال: "يتزوج حفصةَ من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمانُ من هي خيرٌ من حفصة". ثم خطبها الرسول صلى الله عليه وسلم من عمر، فتزوجها فلقي أبو بكر عمر بن الخطاب، فقال له: لا تجد (لا تغضب) على في نفسك؛ فإن رسول اللَّه كان قد ذكر حفصة، فلم أكن لأفشي سرَّ رسول اللَّه، ولو تركها لتزوجتها. [ابن سعد].

وكان زواج النبي عليه السلام من حفصة؛ إكرامًا لها ولأبيها وحُبّا فيهما، وذات يوم قالت امرأة عمر له: عجبًا يا ابن الخطاب ! ما تريد إلا أن تجادل وابنتك تجادل رسول اللَّه حتى يظل يومه غضبان، فذهب عمر بن الخطاب من فوره إلى حفصة غضبان يقول لها: يا بنيتي إني أحذرك عقوبة اللَّه وغضب رسوله. كانت السيدة حفصة -رضي اللَّه عنها- عابدة خاشعة، تقوم الليل، وتصوم النهار، لذا كرمها اللَّه تعالى بفضله وجعلها من نساء النبي عليه السلام في الجنة، وشهدت حفصة-رضي اللَّه عنها- انتصارات الإسلام واتساع دولته، وروت 60 حديثًا عن رسول الله.

الصحابية الجليلة عاتقة المائة

وهي أم المؤمنين السيدة

جويرية بنت الحارث ابن أبي ضرار

اختارتْ جوار اللَّه ورسوله، وفضلتْ الإسلام على اليهودية، فيروى أنه لما جاء أبوها الحارث بن أبي ضرار -سيد يهود بني المصطلق وزعيمهم- إلى عليه السلام يقول: إن ابنتي لا يُسبَى مثلها، فأنا أَكْرَم من ذلك، قال له عليه السلام: "أرأيت إن خيَّرْناها؟" فأتاها أبوها فقال: إن هذا الرجل قد خيرك، فلا تفضحينا، فقالت: فإني قد اخترتُ اللَّه ورسوله، قال: "قد واللَّه فضحتينا" [ابن سعد].

ثم أقبل أبوها في اليوم التالي ومعه فداؤها فلما كان بالعقيق (وادٍ قرب المدينة) نظر إلى الإبل التي جاء بها للفداء، فرغب في بعيرين منها طمعًا فيهما، فغيبهما في شِعْب من شعاب العقيق، ثم أتى عليه السلام يقول: يا محمد، أصبتم ابنتي وهذا فداؤها، فقال رسول اللَّه (: "فأين البعيران اللذان غَيَّبْتَ (خَبَّأْتَ) بالعقيق في شِعْبِ كذا وكذا؟". قال الحارث: أشهد أن لا إله إلا اللَّه، وأشهد أن محمدًا رسول اللَّه، فواللَّه ما أطلعكَ على ذلك إلا اللَّه فأسلم، وأسلم ابنان له، وكثير من قومه، وأرسل بمن جاء بالبعيرين، ودفع بالإبل جميعًا إلى عليه السلام، فكانت -رضي الله عنها- سببًا في إسلام أهلها، ونالت بذلك ثواب هدايتهم، تقول جويرية -رضي الله عنها-: قال لي أبي وهو يبرر هزيمته أمام جيش رسول الله: "أتاناما لا قبل لنا به"، فلما أسلمتُ وتزوجني رسول الله ورجعنا إلى المدينة جعلت أنظر إلى المسلمين، فرأيتهم ليسوا كما سمعتُ، فعلمتُ أنه رعب من اللَّه يلقيه في قلوب المشركين.

اشتُهِرتْ جويرية بكثرة عبادتها وقنوتها للّه، فقد خرج عليه السلام من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال: "مازلت على الحال التي فارقتك عليها؟" قالت: نعم.

قال عليه السلام لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات، لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده، عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته" [مسلم]،فكانت -رضي الله عنها- كثيرًا تردُّدها.

وقد كانت جويرية قبل أن تتزوج عليه السلام متزوجة من رجل مشرك، هو ابن عمها مسامح بن صفوان، وقد قُتل في غزوة بني المصطلق في السنة السادسة للهجرة، حين خرج عليه السلام لقتال يهود بني المصطلق لما بلغه استعدادهم لقتال المسلمين بقيادة زعيمهم الحارث بن أبي ضرار، فقاتلهم، فنصر اللّه رسوله وهزم الكفار وأُخِذت نساؤهم سبايا، ومنهن: جويرية وكان اسمها قبل أن يتزوجها عليه السلام بَرّة فغيره عليه السلام إلى جويرية؛ لأنه كره أن يقال: خرج عليه السلام من عند برة، تقول عائشة -رضي اللّه عنها-: إنه لما أصاب رسول اللّه نساء بني المصطلق، فوقعت جويرية في سهم ثابت بن قيس، الذي عرض عليها أمر افتدائها بمقدار تسع أواق من الذهب، وهو واثق من أنها قادرة على دفعها له؛ لأنها بنت سيد بني المصطلق ومن أغنياء اليهود، فكاتبتْه بهذا المبلغ؛ حتى يطلق سراحها، ولكنه أبَى إلا أن يتسلم أولاً الفداء، ولما كانت جويرية سبية ليس معها ما تفدي به نفسها توجهت إلى رسول اللّه وهو يومئذٍ عندي تسأله في كتابتها، ولما أذن لها الرسول صلى الله عليه وسلم بالدخول قالت: يا رسول اللّه، أنا برة بنت الحارث -سيّد قومه- وقد أصابني من الأمر ما قد علمتَ، فأعِنّي في كتابتي، فقال لها : "أولكِ خير من ذلك؟" فقالت:

ماهو؟ فقال: "أؤدي عنك كتابك وأتزوجك" قالت: نعم يا رسول اللَّه، فقال: "قد فعلتُ". فخرج الخبر إلى الناس فقالوا: أأصهار رسول اللَّه يُسترقُّون؟ فأعتقوا ما كان في أيديهم من نساء بني المصطلق، فبلغ عِتْقُهم مائةَ أهل بيت بزواجه إياها، فلا أعلم امرأة أعظم بركة على أهلها منها [ابن إسحاق].

وكانت السيدة جويرية -رضي الله عنها- في العشرين من عمرها حين تزوجها عليه السلام

وعاشت جويرية في بيت عليه السلام، وامتّد عمرها حتى عهد معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه-، وتوفيت -رضي الله عنها- عام 56 للهجرة، وصلَّى عليها مَرْوان بن الحكم أمير المدينة، وقد بلغت سبعين سنة، وقيل توفيت سنة 50 للهجرة وعمرها 65 سنة. وقد روت -رضي الله عنها- بعضًا من أحاديثه عليه السلام.

سليلة الأنبياء

(صفية بنت حيي)

هي أم المؤمنين السيدة صفية بنت حُيي بن أخطب من ذرية نبي اللَّه هارون، كانت أمها: برة بنت سَمَوأل من بني قريظة، تزوجت عليه السلام وهي في السابعة عشر من عمرها؛ إلا أنها رغم صغر سنها، تزوجت قبل ذلك مرتين، الأولى من سلام بن مشكم القرظي فارس قومها وشاعرهم، والثانية من كنانة بن الربيع صاحب حصن القوص،أقوى حصن من حصون خيبر.

نصر اللَّه المسلمين على اليهود في خيبر نصرًا كبيرًا، وكانت هي من بين السبايا، قال لها رسول اللَّه: "لم يزل أبوك من أشدّ اليهود لي عداوة حتى قتله اللَّه تعالى.. يا صفية، إن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسي، وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك". فقالت: يا رسول اللَّه، إن اللَّه يقول في كتابه: (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ[الزمر:]7، وأنا قد هويتُ الإسلام وصدَّقْتُ بك قبل أن تدعوني حيث صِرْت إلى رَحْلِكْ، وما لي في اليهودية أرَبٌ، وما لي فيها والد ولا أخ، وخيرتني الكفر والإسلام، فاللَّه ورسوله أحبّ إلي من العتق وأن أرجع إلى قومي. [ابن سعد].

فلما همت صفية أن تركب البعير ثنى لها عليه السلام ركبته لتركب، فأجَلَّتْ رسولَ اللَّه أن تضع قدمها على فخذه؛ فوضعت ركبتها على فخذه فركبت، ثم ركب عليه السلام فألقى عليها الحجاب، ثم سارا مع المسلمين حتى إذا كانا على بُعد ستة أميال من خيبر نُزُلاً مع الجيش منزلاً للراحة، فأراد عليه السلام (أن يُعرس بها فأبت صفية، فغضب عليه السلام منها في نفسه، فلما كانا بالصهباء على بعد ستة

عشر ميلاً من خيبر طاوعته، فقال لها: "ما حملك على إبائك حين أردت المنزل الأول؟" قالت: يا رسول اللَّه خشيت عليك قرب اليهود. فأكرمها عليه السلام (على موقفها ذاك وخوفها عليه من اليهود) [ابن سعد].

تقول السيدة صفية -رضي اللَّه عنها-: دخل علي رسول اللَّه وقد بلغني عن عائشة وحفصة قولهما: نحن أكرم على رسول اللَّه منها، نحن أزواجه وبنات عمه، فذكرت له ذلك، فقال : "ألا قُلتِ: وكيف تكونان خيرًا مني؛ وزوجي مُحمد، وأبي هارون وعمي موسى" [الترمذي].

وتقول: جئت إلى رسول اللَّه أزوره في اعتكافه في المسجد في العشر الأواخر من رمضان فتحدثت معه ساعة، ثم قمت أنصرف، فقام عليه السلام معي يودعني، حتى إذا بلغت باب المسجد، عند باب أم سلمة مرّ رجلان من الأنصار، فسلما على رسول اللَّه فقال لهما عليه السلام: "على رِسلكما إنما هي صفية بنت حُيَي"، فقالا: سبحان اللَّه يا رسول اللَّه! وكبر عليهما، فقال : "إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا" [متفق عليه].

ولما كان رسول اللَّه في مرضه الذي تُوفى فيه، قالت السيدة صفية - رضي الله عنها-: واللَّه يا نبي اللَّه! لوددت أن الذي بكَ بي، فغمزها أزواجه، فأبصرهن رسول اللَّه فقال: "مضمضن"، قُلن: من أي شيء؟ قال: "من تغامزكن بها، واللَّه إنها لصادقة" [ابن سعد].

وكانت -رضي اللَّه عنها- سخية كريمة؛ فقد أهدت إلى السيدة فاطمة الزهراء وبعض أمهات المؤمنين حلقات من ذهب، وتصدقت بثمن دارها قبل وفاتها، ويروى أن جارية عندها أتت عمر بن الخطاب -رضي اللَّه عنه- فقالت له: إن صفية تحب السبت وتصِل اليهود، فبعث إليها فسألها عن ذلك، فقالت: أما السبت فإني لم أحبه فقد

أبدلني اللَّه خيرًا منه وهو الجمعة، وأما اليهود فإن لي فيهم رحمًا لذلك أصلها، ثم قالت للجارية: ما حملكِ على هذا؟ قالت الجارية: الشيطان، فقالت لها السيدة صفية: اذهبي فأنت حرة[ابن عبد البر]. وتحكي صفية أنها لما تزوجت عليه السلام رأى بوجهها أثر خُضرة قريبًا من عينها، فقال لها عليه السلام: "ما هذا؟".قالت: يا رسول اللَّه رأيت في المنام كأن قمرًا أقبل من يثرب حتى وقع في حجري، فذكرت ذلك لزوجي كنانة فضرب وجهي ولطمني لطمًا شديدًا، وقال: أتحبين أن تكوني تحت هذا الملك الذي يأتي من المدينة (يقصد رسول اللَّه)) [ابن سعد].

وقد وقفت السيدة صفية بجانب الحق حين تعرض أمير المؤمنين عثمان بن عفان للحصار في منزله ؛ فوضعت خشبًا من منزلها إلى منزل عثمان تنقل عليه الماء والطعام له، توفيت - رضي الله عنها- في رمضان سنة50 من الهجرة- في خلافة معاوية بن أبى سفيان- ودفنت بالبقيع بجوار أمهات المؤمنين، رضوان اللَّه عليهن أجمعين.

أم المؤمنين التقية

أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان

زارها أبوها، وهي في المدينة، فأبعدت عنه فراش عليه السلام، فقال لها: يا بنية أرغبتِ بهذا الفراش عني أم بي عنه؟ قالت: بل هو فراش رسول اللَّه وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحبَّ أن تجلس عليه، فقال: يا بنية لقد أصابك بعدي شر، قالت: لا، بل هداني اللَّه للإسلام، وأنت يا أبت سيد قريش وكبيرها، كيف يسقط عنك الدخول في الإسلام، وأنت تعبد حجرًا لا يسمع ولا يبصر؟!

إنها أم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان، ذات الحسب والنسب والمكانة؛ فأبوها هو أبو سفيان صخر بن حرب بن أمية وأمها صفية بنت أبي العاص، وأخوها معاوية بن أبي سفيان، وقد تزوجها عليه السلام فكانت سببًا للمودة بين عليه السلام وآل أبي سفيان، وفي هذا نزل قوله تعالى: (عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً) [الممتحنة: 7].

وعوضًا عن صبرها وإيمانها الكبير باللَّه تعالى، كانت زوجة لعبيد اللَّه بن جحش، وكان قد تنصر في الجاهلية، ورفض عبادة الأصنام، فلما جاء الإسلام، أسرع هو وزوجته إلى الدخول فيه، لكنهما أمام جبروت قريش وقسوتها على الذين آمنوا، اضطرا إلى الفرار من مكة إلى الحبشة، وهناك أنجبا ابنتهما حبيبة، وبها كانت تُكنَّي، فيقال لها: أم حبيبة.

وفي الحبشة، ارتد عبيد اللَّه بن جحش عن الإسلام واعتنق النصرانية، وحاولت أم حبيبة وجميع من هاجروا إلى الحبشة إثناءه عن عزمه، فلم يفلحوا، وتقص السيدة أم حبيبة تلك الواقعة،

فتقول: رأيت في النوم عبيد اللَّه زوجي في أسوأ صورة وأشوهها، ففزعتُ وقلت: تغيرتْ واللَّه حاله، فإذا هو يقول حين أصبح: يا أم حبيبة، إني نظرت في الدين فلم أر دينًا خيرًا من النصرانية، وكنت قد دِنتُ بها ثم دخلت في دين محمد، وقد رجعتُ، فأخبرتُهُ بالرؤيا فلم يحفل (يهتم) بها، وأكب على الخمر حتى مات.

وقد حاول عبيد اللَّه بن جحش أن يجر امرأته أم حبيبة إلى النصرانية، لكنها - رضوان اللَّه عليها - أبت عليه ذلك، واستمسكت بعقيدتها وظلت على دينها، فنجاها اللَّه بصبرها على دينها، وأبدلها عن زوجها زوجًا خيرًا منه وهو رسول اللَّه .

دخلت أبرهة خادمة النجاشي ملك الحبشة عليها، وقالت: يا أمّ حبيبة إن الملك (تقصد النجاشي) يقول لك إن رسول اللّه كتب إليه ليزوجك منه، قالت أم حبيبة: بشَّركِ اللّه بخير يا أبرهة، خذي هذه مني هدية. وأعطتها سوارين من فضة وخلخالين، فأرسلت أم حبيبة إلى خالد بن سعيد بن العاص ابن عمها لتوكله في أمر زواجها من رسول اللّه، ولما دنا الليل أمر النجاشي جعفر بن أبى طالب ومَنْ هناك مِن المسلمين فحضروا فخطب النجاشي، فقال: الحمد للّه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار، أشهد أن لاإله إلا اللّه وأن محمدًا عبده ورسوله، وأنه الذي بشّر به عيسى ابن مريم عليه السلام، أما بعد: فإن رسول اللّه كتب إلي أن أزوجه أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان فأجابت إلى ما دعا إليه رسول اللّه وقد أصدقتها أربعمائة دينار، ثم سكب النجاشي الدنانير بين يدي القوم.

وتكلم خالد بن سعيد وقال: "الحمد للّه، أحمده وأستعينه وأستنصره، وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، أما بعد: أجبت إلى ما دعا إليه رسول اللّه

وزوَّجتُه أم حبيبة فبارك اللّه لرسول اللّه، ثم دفع خالد الدنانير إلى أمّ حبيبة فقبضَتها، ثم أرادوا الخروج لكن النجاشي استوقفهم وقال: "اجلسوا فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يُؤْكل طعام على التزويج". ودعا بطعام فأكل الحاضرون ثم تفرقوا.

تقول أم حبيبة: فلما وصل إلي المال أرسلت إلى أبرهةالتي بشرتني فقلت لها: يا أبرهة! إني كنت أعطيتك ما أعطيتُ يومئذٍ ولا مال عندي بيدي، فهذه خمسون مثقالاً فخذيها واستعيني بها فأبت أبرهة، وأخرجتْ حُقّاً فيه كلُّ ما كنتُ أعطيتُها فردّته علي، وقالتْ: عزم علي الملك أن لا آخذ منكِ شيئًا وأنا التي أقوم على ثيابه ودهنه، وقد اتبعتُ دين محمد رسول اللّه وأسلمت للّه -عز وجل-،وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليكِ بكل ماعندهن من العطر، فلما كان الغد جاءتني به، فقدمت بذلك على رسول اللّه فكان يراه علي وعندي فلا ينكره،ثم قالت أبرهة: يا أم حبيبة حاجتي إليك أن تقرائي على رسول اللّه السلام مني، وتُعلِميه أني قد اتبعتُ دينه.

ثم لطفت بي وكانت هي التي جَهَّزتني، وكانت كلما دخلت علي تقول: لا تنسى حاجتي إليك، فلما قدمتُ على رسول اللّه أخبرته كيف كانت الخِطبة وما فعلت بي أبرهة، فتبسم وأقرأته منها السلام، فقال: "وعليها السلام ورحمة اللّه وبركاته" [ابن سعد].

وفي ليلة الزفاف أقام عثمان بن عفان -رضي اللَّه عنه- وليمة في عرس عليه السلام وأم حبيبة -وهي ابنة عمة عثمان صفية بنت أبي العاص- هذه الوليمة كانت غير تلك التي أقامها النجاشي في الحبشة عند عقد النكاح.

ولما بلغ أبا سفيان بن حرب خبر زواج عليه السلام من ابنته قال: ذلك الفحل لا يقرع أنفه (أي الرجل الصالح الذي لا يُرد نكاحه)، وقد أحبت أُمُّ حبيبة رسول اللَّه حبّا شديدًا، وآثرت محبته على كل محبة

أخرى، حتى ولو كانت محبتها لأبيها أو أبنائها أو إخوانها أو عشيرتها. وكانت أم حبيبة - رضي اللَّه عنها- تحرص دائمًا على مراقبة اللَّه -عز وجل- وابتغاء مرضاته، فقد روى عن السيدة عائشة -رضي اللَّه عنها- أنها قالت: دعتني أمّ حبيبة عند موتها، فقالت: قد كان يحدث بيننا ما يكون من الضرائر، فغفر اللَّه لي ولك ما كان من ذلك، فقلت: غفر الله لكِ ذلك كله وتجاوز وحلَّك من ذلك كله، فقالت: سررتني سركِ الله، وأرسلتْ إلى أمّ سلمة- رضي اللَّه عنها- فقالت لها مثل ذلك. هذا وقد أسلم أبوها أبو سفيان في فتح مكة، وأعطى رسول الله الأمان لمن دخل داره، ففرحت أم حبيبة بإسلام أبيها فرحة كبيرة، وامتد بأمّ حبيبة العمر حتى عَهْدِ أخيها معاوية بن أبي سفيان وتوفيت في سنة أربع وأربعين للهجرة فرضي اللَّه عنها وأرضاها.

وروت -رضي الله عنها- عن رسول الله خمسة وستين حديثًا، وروى عنها كثير من الصحابة والتابعين -رضي الله عنهم أجمعين-.

صاحبة الهجرتين رقية بنت النبي عليه السلام

ولدت السيدة رقية -رضي الله عنها- قبل الهجرة بعشرين عامًا، ونشأت في أحضان أبيها رسول الله، وأمها السيدة خديجة بنت خويلد-رضي الله عنها-، وكانت رقية -رضي الله عنها- ملازمة لأختها أم كلثوم لتقارب السن بينهما، ولم يفترقا حتى خطب عبد العزى بن عبد المطلب (أبو لهب) السيدة رقية لابنه عتبة، كما خطب السيدة أم كلثوم لابنه الآخر عتيبة.

فلما بُعث رسول الله وأنزل الله عز وجل: (تبت يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (1) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (2) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (3) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (4) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ(5))[سورة المسد] على رسول الله وعيدًا ورحمةً، وعيد لأبى لهب وزوجتِه، ورحمة لرقيةَ وأمِّ كلثوم ابنتي رسول الله، إذ نجاهما الله من العيش في بيت الشرك والكفر .

قال أبو لهب لابنه عتبة: رأسي من رأسك حرام إن لم تطلق ابنته، ففارقها ولم يكن قد دخل بها، وأسلمت رقية -رضي الله عنها- حين أسلمت أمها السيدة خديجة، وبايعت النبي عليه السلام ، ثم تزوجها عثمان بن عفان بمكة فكان زواجها سعيدًا موفقًا متكافئًا. ثم هاجرت رقية مع زوجها عثمان إلى أرض الحبشة، فكان عثمان أول من هاجر إليها، واستقر بهما المقام بالحبشة، وسارت بهما الأيام هادئة، حتى أشيع أن أهل مكة قد كفوا أيديهم عن تعذيب المسلمين والتنكيل بهم، فعادت السيدة رقية مع زوجها عثمان -رضي الله عنهما-، وبعض الصحابة إلى مكة، ولكنهم فوجئوا بأن أهل مكة مازالوا على عنادهم يسومون المستضعفين من المسلمين سوء العذاب، فانتظروا قدوم الليل، ثم دخلوا مكة متفرقين.

وعندما عادت السيدة رقية إلى مكة كانت أمها خديجة قد لقيت ربها، فحزنت عليها أشد الحزن، ثم ما لبثت أن هاجرت إلى المدينة بعد أن هاجر زوجها عثمان من قبل.

ولدت رقية من عثمان ابنها عبد الله وبه كان يكنى، ولما بلغ ست سنوات نَقَرَهُ ديكُ في وجهه، فطمر وجهه فمات، وكانت رقية قد أسقطت قبله سقطًا وقت هجرتها الأولى، ولم تلد بعد ذلك. وتجهز المسلمون لأول معركة مع الكفر في بدر، وتمنى عثمان أن يكون مع المجاهدين، ولكن زوجته كانت تعالج سكرات الموت بعد مرض شديد -قيل إنه الحصبة- إثر حزنها الشديد على وفاة ولدها، ولذلك أذن الرسول صلى الله عليه وسلم لعثمان بالتخلف ليكون إلى جوارها يطببها، ولكنها ما لبثت أن لبت نداء ربها في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة، وكانت أولى بنات النبي عليه السلام موتًا، وفي ذلك يقول ابن عباس: لما ماتت رقية بنت رسول الله.

قال رسول الله :"الحقي بسلفنا عثمان بن مظعون"[ابن سعد]،فبكت النساء عليها، فجعل عمر بن الخطاب يضربهن بسوطه، فأخذ النبي عليه السلام بيده، وقال: "دعهن يبكين" [ابن سعد]، ثم قال: "ابكين وإياكن ونعيق الشيطان، فإنه مهما يكن من القلب والعين فمن الله والرحمة، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان" [ابن سعد]، فقعدت فاطمة الزهراء على شفير القبر بجوار رسول الله، وهي تبكي ورسول الله يمسح الدمع عن عينيها بطرف ثوبه وعيناه تدمعان [ابن سعد]، ودفنت-رضي الله عنها- بالبقيع ، رحمها الله.

الصحابية الجليلة

أخت الفاروق (فاطمة بنت الخطاب)

سُجل اسمها في ذاكرة التاريخ ووعي الأمة من خلال إسلام أخيها "عمر بن الخطاب"، ويكفيها فخرًا واعتزازًا أن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يعز الله الإسلام بأحد العمرين قد تحققت على يديها؛ إنها أمّ جميل فاطمة بنت الخطاب أخت عمر -رضي الله عنهما-، فيحكي عمر بن الخطاب -رضي اللَّه عنه- قصة إسلامه على يديها، فيقول: خرجتُ بعد إسلام حمزة بثلاثة أيام، فإذا بنعيم ابن عبد الله المخزومي، فقلتُ له: أرَغِبْتَ عن دين آبائك إلى دين محمد؟ قال: قد فعل ذلك من هو أعظم عليكَ حقًّا مني، فقلتُ: ومَنْ هو؟ قال: أختك فاطمة وخَتنُك (صهرك) زوجها، (سعيد بن زيد).

فانطلقتُ فوجدتُ الباب مغلقًا، وسمعتُ هَمْهَمَة، ولما فُتِح الباب -دخلتُ، فقلتُ: ما هذا الذي أسمعُ؟ قالتْ فاطمة: ما سمعت شيئًا، فما زال الكلام بيننا حتى أخذتُ برأسها، فقالتْ: قد كان ذلك على رغم أنفك، فاستحييتُ حين رأيت الدم، وقلت: أروني الكتاب الذي سمعتكم تقرءون آنفًا، فقالت: إنا نخشاك عليه، فقلتُ: لا تخافي وحلفت بالآلهة لأردّنه -إذا قرأتُه- إليهم، فقالت: إنه لا يمسهُ إلا المطّهرون، فاغتسلتُ، فقرأتُ: بسم اللَّه الرحمن الرحيم (طه(1) ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى(2) إلا تذكرة لمن يخشى(3) تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى (4)الرحمن على العرش استوى(5)) [طه: 1-5].

فقلتُ:ما أحسنَ هذا الكلام وأكرمَه، فلما سمع مني خَبَّاب بن الأَرَتّ هذا الكلام خرج من مخبئه، حيث كان يُقْرِئها وزوجَها القرآن، فلما

سمعني -أَطْرُق على الباب- خشي وتخفّى فيه، فقال: يا عمر، إني لأرجو اللَّه أن يكون قد خصَّك بدعوة نبيه، فإني سمعتُه أمس وهو يقول: "اللهم أيِّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب" (وفي رواية: بأحد العُمَرَيْن) فاللهِ اللهَ يا عمر.

فقلتُ لخباب: دلني على محمد؛ حتى آتيه فأُسْلِم، فأخذني إلى بيت الأرقم بن أبي الأرقم (على الصفا)، حتى قلت أمام رسول اللَّه، حينئذ كَبَّر رسول اللَّه فكَبَّر الصحابة وهللوا، وأعلنوا فرحتهم [أبو نعيم].

نشأت فاطمة في بيت أبيها الخطاب بن نفيل المخزومي القرشي صاحب الشرف والرفعة والفضائل العربية، وأمها هي حنتمة بنت هاشم بن المغيرة.

كانت فاطمة بنت الخطاب صحابية جليلة لها السبق إلى الإسلام، هي وزوجها سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل -أحد العشرة المبشرين بالجنة- حيث أسلما قبل دخول النبي عليه السلام دار الأرقم، وأنجبت له عبد الرحمن وقد كان لها دور مهم في بداية الدعوة، فقد أعطتْ أنموذجًا كريمًا للمرأة في الكتمان والسرية حفاظًا على الإسلام وعلى رسول الله، وضربْت -كذلك- مثالاً في الشجاعة.

يروى أن المشركين هاجموا المسلمين ذات يوم، وكان فيهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، وضُرب أبو بكر ضربًا شديدًا، ثم حُمل إلى داره، فلما أفاق سأل أمه "أم الخير": مافعل رسول اللَّه؟ فقالت: واللَّه مالي علم بصاحبك! فقال: اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه، فخرجَتْ حتى جاءت أمَّ جميل، فقالتْ: إن أبا بكر يسألكِ عن محمد بن عبد اللَّه، فقالت أم جميل: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد اللَّه، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك، قالتْ: نعم. فمضتْ معها حتى وجدتْ أبا بكر صريعًا، فاقتربتْ أم جميل منه،

وصاحت: واللَّه إن قومًا نالوا هذا منك، لأهل فسق وكفر، وإني لأرجو أن ينتقم اللَّه منهم، قال: فما فعل رسول اللَّه ؟ قالت: هذه أمك تسمع قال: فلاشيء عليك منها، قالت: سالم صالح. قال: أين هو؟ قالت: في دار ابن الأرقم، قال: فإن للَّه علي لا أذوق طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى آتي رسول اللَّه. فأمهلتاه حتى سكن الناس، ثم خرجتا به يتكئ عليهما؛ حتى أدخلتاه على رسول الله...وقد روت -رضي اللَّه عنها- عن النبي عليه السلام عدة أحاديث .

الشيماء أخت رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرضاعة

إنها الشيماء حذافة بنت الحارث -رضي اللَّه عنها- أخت النبي من الرضاعة، وحاضنته مع أمها حليمة السعدية -رضي اللَّه عنها- فكانت تلاعب النبي وهو صغير، وتقول له:

يا ربَّنَا أبْقِ لنَا مُحَمَّدًا ** حتى أرَاهُ يَافِعًا وأمرَدَا
ثُمَّ أَراهُ سَيِّدًا مُسَوَّدَا **واكْبِتْ أعَادِيهِ مَعًا وَالْحُسَّدَا

وكان أبو عروة الأزدي إذا أنشد هذا يقول: ما أحسن ما أجاب اللَّه دعاءها!.أحبتْ الشيماء أخاها رسول اللَّه، وتابعتْ أخباره أولاً بأول، وسمعتْ بدعوته حين بُعث فصدقتْه وناصرتْه، رأتْ في دعوته السلام والأمن والحب والتسامح والإخاء.

ولما أغارت خيل رسول اللَّه على هوازن (قبيلة الشيماء)، وهزم بنو سعد، كانت فيمن أخذ من السبي، وكانت قد كبر سنها، وضعف جسمها وتغيرت ملامحها كثيرًا، فقالت لمن أسرها من المسلمين: أنا أخت صاحبكم، فلما قدموا بها، قالت: يا محمد! أنا أختك؛وعرّفته بعلامة عرفها، فرحب بها وبسط لها رداءه فأجلسها عليه، ودمعت عيناه، فقال لها: "إن أحببتِ أن ترجعي إلى قومك أوصلتُك، وإن أحببتِ فأقيمي مكرَّمة محبّبة"، فقالت: بل أرجع، فأسلمت وأعطاها النبي نَعَمًا، وغلاماً، وجارية؛ إكرامًا لها [ابن هشام].

ولما توفي رسول الله ارتد قومها (بنو سعد) عن الإسلام، فوقفتْ موقفًا شجاعًا، تدافع عن الإسلام بكل جهدها؛ حتى أذهب الله الفتنة عن قومها، وكانت -رضي اللَّه عنها- كثيرة العبادة والتنسُّك، واشتهرت بشِعرها الذي ناصرت فيه الإسلام ورسوله، وظلت تساند المسلمين وتشد من أزرهم حتى أتاها اليقين، فرضي اللَّه عنها.

الباغية التي نزل فيها قرآن..

مسيكة التائبة

قال الله تعالى : " ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم " سورة النور آية (33) .

في مجتمع المدينة المنورة الذي هاجر إليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم– كانت المعركة بين الحق والباطل تأخذ صوراً متعددة، ومن أعنف تلك الصور، الحرب الخفية التي كان أعداء الإسلام من يهود ومنافقين يشنونها على الإسلام والمسلمين .

فكان عبد الله بن سلول رأس المنافقين يشن حرباً لا هوادة لها على المسلمين، فقد كان قدوم الإسلام إلى المدينة المنورة سبباً في ألّا يتوج ملكاً على المدينة المنورة، لذلك كانت أحقاد ابن سلول حليف اليهود ضد المسلمين أحقاداً لا نهاية لها.

كان لعبد الله بن سلول جيوب للدعارة بها فتيات جميلات من يهود وغير يهود، ترفع أمام تلك البيوت رايات حمر لتعرف بها، وكان يحاول من وراء ذلك أن يغوي شباب المؤمنين للإنحراف عن الطريق القويم الذي تمسكوا به، وكان من بين فتياته فتاة تدعى مسيكة استطاع أن يكرهها على البغاء قبل قدوم المسلمين إلى المدينة المنورة .

وحين جاء الإسلام بنوره إلى المدينة المنورة، سمعت مسيكة من ابن سلول تحذيره لها ولزميلاتها مما يدعو إليه محمد – صلى الله عليه وسلم – بل كان يرصد مكافأة ثمينة لمن تستطيع أن تغوي أحداً من أتباع الإسلام وتوقع به في المعصية.

أخذت مسيكة تتساءل بينها وبين نفسها عن هذا الدين الجديد الذي أخذ ابن سلول من تحذيرها منه، وأخذت تقترب خفية من نساء الأنصار ، فسمعت منهن القرآن الكريم، فداخل قلبها بنوره حين سمعت قوله تعالى : (طه(1)ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى (2) إلّا تذكرة لمن يخشى (3) تنزيلاً ممن خلق الأرض و السموات العلى (4) الرحمن على العرش استوى (5) له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى (6) وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السرّ وأخفى (7)الله لا إله إلّا هو له الأسماء الحسنى (8)) سورة طه الآيات من(1- 8).

سألت مسيكة عن الإسلام، فسمعت أنه شهادة أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله،إقام الصلاة،إيتاء الزكاة، صوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً، وسألت عن الذي يقترف الذنب، فسمعت ما فتح أمامها أبواب الأمل في توبة الله سبحانه وتعالى، فهو القائل: (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم)سورة الزمر (35).

وسمعت قول النبي -صلى الله عليه وسلم- : " إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها "، أحست مسيكة أنها لا بد أن تبدأ خطوة على درب التوبة، ولكن ما السبيل إلى ذلك وابن سلول يريد مزيداً من المال من انحرافها وانحراف غيرها.

ذات يوم حضر سادة من تميم لزيارة ابن سلول وكانوا يأتون إليه كلما عادوا من رحلتهم إلى بلاد الشام يطلبون المتعة الحرام، فبادرهم بالتحية، وجلسوا إليه يتبادلون الحديث، ودارت بينهم كؤوس الراح، ثم سأله أحدهم عن تلك الفتاة التي أرسلها إليهم في المرة السابقة.

أمر ابن سلول قيم الدار أن يرسل مسيكة ومعها أخريات، لكنه عاد إليه وأخبره أنها تأبى الحضور، فبدت عليه أمارات الدهشة حين سمع منه ذلك، مضى ابن سلول مسرعاً إلى غرفة مسيكة ودفع الباب بقدمه فوجدها تصلي كما يصلي المسلمون، ذهل ابن سلول حين رأى ذلك واندفع إليها ليضربها بقسوة ووحشية قائلاً : ويل لك أأغواك محمدٌ؟ فقالت: بل هداني للحق. فزاد غضبه وأخذ يضربها بقسوة ويركلها بقدمه حتى شجّ رأسها وخرج.

أخذت مسيكة تفكر كيف تدفع شر ذلك الشيطان ابن سلول، فهي لا تريد أن تعود مرة ثانية إلى مستنقع الإثم الذي يجدون فيه ضالتهم، أخذت تقلب الرأي فيما تفعل، وأخيراً وجدت أنها لا تستطيع أن تواجههم إلّا إذا مضت إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وشرحت له الأمر ، انتظرت مسيكة حتى أرخى الليل سدوله، وأخذت تتحين الفرصة لتمضي من البيت دون أن يراها أحد ، وحين انتصف الليل، انتهزت الفرصة وفرت مسرعة، ولكن إلى أين تذهب؟ تذكرت وهي تمضي تلك المرأة العجوز المسلمة التي تعيش وحدها، والتي سمعت منها القرآن الكريم، فأسرعت إلى بيتها، وطرقته، وهبت المرأة العجوز وفتحت لها الباب، وطلبت منها أن تؤويها حتى الصباح، فرحبت بها المرأة، أخذت المرأة العجوز تبحث في بيتها عن طعام تقدمه لمسيكة، ثم جلست إلى جوارها تواسيها وتسمع منها مأساتها.

عندما أشرق الصباح، مضت المرأة مع مسيكة إلى مسجد رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وعند باب المسجد لقيها أبو بكر الصديق، فهاله ما رأى من أمر الفتاة التي علتها الجراح، وسألها عن الأمر فأخبرته بأن ابن سلول يريد إرغامها على البغاء، دخل أبو بكر إلى رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وقص عليه الأمر وأخذ الرسول ما يأخذه حيث يتنزل عليه الوحي من ربه سبحانه وتعالى، لقد أنزل الله

في شأنها قوله الكريم : (ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم)سورة النور (33) ، فعلمت مسيكة بما تنزل في شأنها من السماء يؤازر موقفها، ما أعظمك يارب العالمين وما أكرمك، هكذا أخذت مسيكة تشكر ربها، وانتشر الأمر بين الناس، وانكشف موقف عبد الله بن أبي سلول من المسلمين، وأخذ يردد : محمد يغلبنا على مملوكتنا. .

وهكذا نعيش كمسلمين مع قصة تلك الفتاة التي آزر الله توبتها، وسجل في القرآن الكريم قصتها، فهو سبحانه غافر الذنب وقابل التوب الرحيم بخلقه، فهل من تائب؟

الشفاء بنت الحارث

(المعلمة الأولى في الإسلام)

أسلمت الشفاء رضي الله عنها قبل الهجرة وهي من المهاجرات الأوائل ومن المؤمنات المبايعات وهي المذكورة في الآية 12 من سورة الممتحنة، وكانت رضي الله عنها من عقلاء النساء وفضلائهن وكانت علماً من أعلام الإسلام وتربة خصبة للعلم والإيمان، تزوجت الشفاء رضي الله عنها من أبي حثمة بن حذيفة بن عدي، فرزقها الله منه بولدها سليمان بن أبي حثمة.

وكانت الشفاء رضي الله عنها ممن تعلمن القراءة والكتابة في مكة قبل الإسلام، ولما أسلمت أخذت بتعليم ذلك إلى نساء المسلمين مبتغية بذلك الأجر والثواب، فكانت بذلك أول معلمة في الإسلام، وكان ممن تعلم على يديها حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها، فقد ورد في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب من الشفاء رضي الله عنها أن تعلم حفصة رضي الله عنها الكتابة وبعض الرقي. تقول الشفاء رضي الله عنها: دخل على رسول الله صلي الله عليه وسلم وأنا عند حفصة فقال لي: "ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة؟" . فكانت الشفاء ترقي في الجاهلية فلما أسلمت وهاجرت قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: كنت أرقي في الجاهلية وقد أردت ان أعرضها عليك، فقال عليه الصلاة والسلام اعرضيها، قالت: فعرضتها عليه وكانت ترقي من النملة، فقال صلى الله عليه وسلم: "ارقي بها وعلميها حفصة " .

ومما جاء في الرقيةأيضاً أن يقول:(اللهم رب الناس مذهب البأس اشف أنت الشافي لا شافي إلا أنت شفاءً لا يغادر سقماً).

هذا و قد نالت الشفاء رضي الله عنها الكثير من رعاية الرسول صلى الله عليه وسلم فخصص لها داراً في المدينة عند الحكاكين فنزلت فيها مع ابنها سليمان، وكان عليه الصلاة والسلام يزورها ويقيل عندها، وقد أحبت الشفاء رسول الله عليه أفضل الله والسلام كغيرها من المؤمنين والمؤمنات من أحاديثه عليه الصلاة والسلام الكثير في أمور الدين والدنيا، فكانت تدعو إلى الإسلام وتنصح الجميع ولا تتوانى عن تبيان الأخطاء فروى عنها ابنها سليمان و أبناء ابنها ومولاها أبو إسحاق وحفصة أم المؤمنين وغيرهم.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقدمها في الرأي ويرعاها ويفضلها وربما ولاها شيئا من أمر السوق، وكانت هي أيضاً تبادل عمر الاحترام وترى فيه الإنسان المسلم الصادق والقدوة الحسنة في الإصلاح والتقوى والعدل، فقد رأت فتياناً يقصدون في المشي ويتكلمون رويداً فقالت : ما هذا؟، قالوا: نساك، فقالت الشفاء رضي الله عنها : كان والله عمر اذا تكلم اسمع وإذا مشى أسرع وإذا ضرب أوجع. وعاشت الشفاء بقية حياتها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تحظى برعاية الجميع واحترامهم حتى توفيت سنه 20هـ ، فرحمها الله فقد قدمت لأمتها كل الخير.

صاحبة الهجرتين، ومصلّية القبلتين، وزوجة الشهيدين، وزوجة الخليفتين.

الصحابية أسماء بنت عميس

أسماء بنت عميس بن معد بن تميم بن الحارث بن كعب بن مالك بن قحافة وتكنى بأم عبد الله،إحدى الأخوات المؤمنات الأربع اللاتي حصلن على وسام الإيمان من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال:"الأخوات الأربع المؤمنات: ميمونة وأم الفضل وسلمى وأسماء".

أسلمت قبل أن يدخل المسلمون دار الأرقم بن أبي الأرقم ، وهي زوج الصحابي البطل جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه صاحب الجناحين كما يلقبه رسول الله؛ فقد كان صلى الله عليه وسلم اذا أراد أن يسلم على عبد الله بن جعفر قال: "السلام عليك يا ابن ذي الجناحين".

كانت أسماء من المهاجرات الأوائل، فهاجرت مع زوجها جعفر إلى الحبشة، وذاقت مرارة الغربة القاسية ولوعتها وكان زوجها خطيب المسلمين أمام ملك الحبشةالنجاشي آنذاك، وفي أرض الغربة ولدت لزوجها جعفر أبناءه الثلاثة: عبد الله ومحمد وعون، وكان ولدها عبد الله شبيهاً بأبيه جعفر وأبوه شبيهاً برسول الله فكان ذلك يسعدها ويحرك مشاعر الشوق عندها لرؤية النبي فقد كان صلى الله عليه وسلم يقول لجعفر: (أشبهت خَلقي وخُلقي).

ولما أمر النبي المهاجرين بالتوجه إلى المدينة كادت أسماء تطير فرحاً، فهذا هو الحلم قد تحقق وصار للمسلمين دولتهم فسيكونون جنوداً في جيش الإسلام لنشر دعوته وإعلاء كلمة الله.

وهكذا خرجت أسماء رضي الله عنها مع الركب في هجرته الثانية من أرض الحبشة إلى المدينة، وما أن وصل الوفد المهاجر إلى المدينة حتى سمع المسلمون بسقوط خيبر وانتصار المسلمين، وارتفع التكبير في كل مكان فرحاً بانتصار الجيوش وبعودة المهاجرين من الحبشة. ويتقدم جعفر من الرسول فيتلقاه بالبشر ويقبل جبهته ثم يقول: "والله ما أدري بأيهما أفرح بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟!" ، ودخلت أسماء على حفصة بنت عمر تزورها فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها فقال عمر حين رأى أسماء من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس، قال عمر: هذه الحبشية البحرية؟. قالت أسماء: نعم، قال عمر: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم. وغضبت أسماء ولم تتمالك نفسها فقالت: كلا والله كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دار أو في أرض البعداء والبغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله صلى الله عليه وسلم، وسكتت هنيهة، ثم تابعت: وأيم الله لا أطعم طعاما ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن كنا نؤذى ونخاف وسأذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه، فلما جاء النبي صلي الله عليه وسلم قالت له أسماء: يا نبي الله إن عمر قال كذا وكذا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فما قلت له؟ قالت: قلت له: كذا وكذا، فقال عليه أفضل الصلاة والسلام : " ليس بأحق بي منكم وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان"، وغمرت السعادة قلب أسماء بشهادة النبي وشاع خبر حديث رسول الله بين الناس، وبدأ الناس يوفدون على أسماء يستوضحون الخبر فتقول أسماء: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتونني إرسالاً

يسألونني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم.

ولما توجه جيش المسلمين إلى الشام كان من بين أمراءه الثلاثة زوج أسماء جعفر، وهناك في أرض المعركة اختاره الله ليفوز بالشهادة في سبيل الله، ويأتي رسول الله إلى بيت أسماء ويسأل عن الصبيان الثلاثة فيضمهم إليه، ويشمهم ويسمح رؤوسهم وتذرف عيناه الشريفتان بالدموع، فقالت له أسماء والجزع قد ملأ كيانها: بأبي أنت وأمي ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: نعم أصيبوا هذا اليوم.

ولم تتمالك أسماء نفسها من البكاء فواساها صلى الله عليه وسلم وقال لها: (تسلبي ثلاثاً ثم اصنعي ما شئت)، ثم قال عليه الصلاة والسلام لأهله:"اصنعوا لأهل جعفر طعاماً فإنه قد جاءهم ما يشغلهم".
ولم يكن للمرأة المؤمنة إلا أن تجفف الدموع وتصبر وتحتسب عند الله الأجرالعظيم، بل باتت تتمنى لو كانت مع زوجها لتفوز بالشهادة مثله وخاصة عندما سمعت أحد رجال بني مرة بن عوف يقول وكان في تلك الغزوة: والله لكأني انظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء ثم عقرها ثم قاتل حتى قتل وهو يقول:

يحبذا الجنة واقترابها طيبه وبارداً شرابها ...

والروم روم قد دنا عذابها كافره بعيدة أنابها ثم أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت فاحتضنه بعضديه حتى قتل رضي الله عنه، وتدرك أسماء رضي الله عنها معنى قول الرسول لولدها: "السلام عليك يا ابن ذي الجناحين" فقد أبدله الله عن يديه المقطوعتين جناحين يطير بهما حيث شاء.

وتنكب الأمّ الصالحة الصابرة على تربية أطفالها الثلاثة، وتنشئهم على الاقتداء بسيرة أبيهم الشهيد الطيار وطبعهم بطابع الإيمان . ولم تمض فتره طويلة حتى يتقدم أبو بكر رضي الله عنه خاطباً لأسماء وذلك بعد وفاة زوجته أم رومان رضي الله عنها.

ولم يكن لأسماء أن ترفض مثل الصديق وهكذا انتقلت إلى بيت الصديق لتستلهم منه المزيد من نور الحق والإيمان، ولتضفي على بيته الحب والوفاء، وبعد فترة من الزواج المبارك من الله عليهما فرزقت منه بولد، وهي بذي الخليفة وهم يريدون حجة الوداع فأمرها أبو بكر أن تغتسل، ثم تهلَّ بالحج بعد أن سأل رسول الله عن ذلك، ثم شهدت أسماء من الأحداث الجسام الكثير والكثير وكان أشدها وفاة سيد ولد آدم وانقطاع الوحي من السماء ، ثم شهدت زوجها أبا بكر خليفة المسلمين وهو يواجه أعضل المشكلات يومئذ كقتال المرتدين ومانعي الزكاة وبعث جيش أسامة وكيف وقف كالطود لا يتزحزح ولا يتزعزع وكيف نصر الله المسلمين بتلك المواقف الإيمانية الجريئة. وكانت أسماء تسهر على راحة زوجها وتعيش معه بكل مشاعرها حاملة معه عبء الأمة الكبير ، ولكن ذلك لم يدم طويلاً فقد مرض الخليفة الصديق واشتد عليه المرض وأخذ العرق يتصبب من وجنتيه، فحس بشعور المؤمن الصادق بدنو أجله فسارع بوصيته، وكان من جملة ما أوصي به، أن تغسله زوجته أسماء بنت عميس رضي الله عنها، وكما عزم عليها أن تفطر قائلاً لها: هو أقوى لك.

وشعرت أسماء بقرب الفاجعة فاسترجعت واستغفرت وهي لا تميل بنظرها عن وجه زوجها الذي علاه الذبول إلى أن أسلم الروح إلى بارئها، فدمعت العين وحزن القلب، ولكنها لم تقل إلا ما يرضي الرب تبارك وتعالى فاحتسبت وصبرت.

ومن ثم قامت بالمهمة التي طلبها منها زوجها الفقيد حيث كانت محل ثقته فبدأت بتغسيله وقد أضناها الهم والحزن، فنسيت وصيته الثانية فسألت من حضر من المهاجرين قائلة: إني صائمة وهذا يوم شديد البرد فهل علي من غسل؟ فقالوا: لا، وفي آخر النهار وبعد أن ووري جثمان الصديق تذكرت أسماء وصية زوجها الثانية فقد عزم عليها ان تفطر فماذا عساها تفعل الآن؟ فالوقت آخر النهار وما هي إلا فترة وجيزة وتغيب الشمس ويفطر الصائم، فهل تستجيب أسماء لعزيمة زوجها؟ أم تنتظر لحظات؟

إن الوفاء للزوج أبى عليها أن ترد عزيمة زوجها الراحل فدعت بماء وشربت وقالت: والله لا أتبعه اليوم حنثاً.

ولزمت أسماء بيتها ترعى أولادها من جعفر ومن أبي بكر الصديق...

تحدب عليهم سائلة الله أن يصلحهم، ويصلح بهم ويجعلهم للمتقين إماماً، وهذا غاية ما كانت ترجوه من دنياها غير عالمة بما يفاجئها من القدر المكنون في علم الله.

فها علي بن أبي طالب رضي الله عنه أخو جعفر الطيار ذي الجناحين يتقدم لأسماء طالباً الزواج منها وفاءً لأخيه الحبيب جعفر ولصاحبه الصديق رضي الله عنهما، وبعد تردد وتقليب للأمور من كل جوانبها قررت الموافقة على الزواج من علي لتتيح له بذلك الفرصة لمساعدتها في رعاية أولاد أخيه جعفر، وانتقلت معه إلى بيته بعد وفاة فاطمة الزهراء رضي الله عنها، فكانت له خير الزوجة الصالحة وكان لها خير الزوج في حسن المعاشرة، وما زالت أسماء ترتفع وتسمو في عين علي رضي الله عنه حتى أصبح يردد كل مكان: " كذبتكم من النساء الحارقة فما ثبتت منهن امرأة إلا أسماء بنت عميس"، ويكرم الله علياً ويرزقه الولد من أسماء فولدت له محمد ويحيى، وتمر الأيام ويشاهد

علي منظر ولد لأخيه جعفر يتشاجر مع محمد بن أبي بكر، وكلاً منهما يتفاخر على الأخر ويقول: أنا أكرم منك وأبي خير من أبيك، ولم يدرِ علي ماذا يقول لهما؟ وكيف يصلح بينهما بحيث يرضي عواطفهما معا؟؟ فما كان منه إلا أن استدعى أمهما أسماء وقال لها: اقضي بينهما، وبفكر حاضر وحكمة بالغة قالت: ما رأيت شاباً من العرب خيراً من جعفر ولا رأيت كهلاً خيراً من أبي بكر.

وهكذا انتهت المشاجرة وعاد الصغيران إلى التعانق واللعب، ولكن علياً المعجب بحسن القضاء بين الأولاد، نظر في وجه زوجته العاقلة قائلاً: ماتركت لنا شيئاً يا أسماء!! وبذكاء حاد وشجاعة نادرة وأدب جم قالت: إن ثلاثة أنت أحسنهم خيار. ولم يستغرب على مقالة زوجته العاقلة، فقال لها بكل شهامة ومروءة نادرة: لو قلت غير الذي قلت لمقتك.
واختار المسلمون علياً خليفة بعد عثمان بن عفان رضي الله عنه وأصبحت أسماء للمرة الثانية زوجاً لأمير المؤمنين رابع الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين.

وكانت أسماء على مستوى المسؤولية كزوجة لخليفة المسلمين؛ أما الأحداث العظام فدفعت بولديها عبد الله بن جعفر ومحمد بن أبي بكر إلى جانب أبيهما لنصرة الحق، ثم ما لبثت طويلاً حتي فجعت بولدها محمد بن أبي بكر، وكان أثر هذا المصاب عليها عظيماً ولكن أسماء المؤمنة لا يمكن لها أن تخالف تعاليم الإسلام؛ فما كان منها إلا أن تجلدت، واستعانت بالصبر والصلاة على ما ألمّ بها وما زالت تكتم حزنها حتى شخب ثدياها دماً، وما كاد العام ينتهي حتى ثقلت وأحست بالوهن يسري في جسمها سريعاً ثم فارقت الحياة وبقيت رمزاً على مدار التاريخ بعد أن ضربت لنا أعظم النماذج في الحكمة والصبر على الشدائد.

آمنة بنت وهب سيدة الأمهات-

أمّ الرسول صلى الله عليه و سلم

هذه الشخصية العظيمة والأمّ الجليلة لطالما نقصت المصادر والراويات عنها، ويمكن تلمس ملامحها من خلال صورة ابنها العظيم الذي آوته أحشاؤها، وغذاه دمها، واتصلت حياته بحياتها، لقد كان سيدنا محمد هو الأثر الجليل الذي خلفته السيدة آمنة بنت وهب، وأن الله تعالى اختار سيدنا محمد حيث اختاره من كنانة، واختار كنانة من قريش من العرب، فهو خيار من خيار ، وما كان لها من أثر في تكوين ولدها الخالد الذي قال معتزاً بأمهاته بالجاهلية: " أنا ابن العواتق من سليم".

عانت المرأة في الجاهلية، من صنوف الاستعباد والاستبداد، ومن وأد البنات وانتقال المرأة بالميراث من الآباء إلى زوجات الأبناء، وغيرها إلا أننا غافلون عن أمومة آمنة بنت وهب، وعن فضلها في إنجاب خاتم النبيين- عليهم الصلاة والسلام، فمن الملوك العرب، من انتسبوا إلى أمهاتهم: كعمرو بن هند، وأبوه هو المنذر بن ماء السماء. وهناك كثير من الشعراء يمدحون كبار الرجال بأمهاتهم، وكذلك لم ينسوا أن يذكروا للمرأة مشاركتها في جليل الأحداث؛ فقال حذيفة بن غانم : ولا تنس ما أسدى ابن لبنى فإنه قد أسدى يداً محقوقة منك بالشكر،

تفتحت عينا الفتاة والأمّ الجليلة آمنة بنت وهب في البيت العتيق في مكة المكرمة، في المكان الذي يسعى إليه الناس من كل فج، ملبية نداء إبراهيم الخليل -عليه الصلاة والسلام – في الناس بالحج، وفي ذلك المكان الطاهر المقدس وضعت السيدة آمنة بنت وهب سيد

الخلق محمداً في دار عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، وبيئة آبائه وأجداده، ودار مبعثه صلى الله عليه وسلم.

تندرج آمنة بنت وهب من أسرة آل زهرة ذات الشأن العظيم، فقد كان أبوها وهب بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي سيد بني زهرة شرفاً وحسباً، ولم يكن نسب آمنة من جهة أمها، دون ذلك عراقة وأصالة فهي ابنة برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب، فتجمع في نسب آمنة عز بني عبد مناف حسباً وأصالة، ويؤكد هذه العراقة والأصالة بالنسب اعتزاز الرسول صلى الله عليه وسلم بنسبه حيث قال : " ...لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذباً، لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما "ويقول أيضاً : " أنا أنفسكم نسباً وصهراً وحسباً ".

كان منبت سيدتنا آمنة وصباها في أعزّ بيئة، وما لها من مكانة مرموقة من حيث الأصالة، النسب والحسب، والمجد السامية، فكانت تعرف بزهرة قريش فهي بنت بني زهرة نسباً وشرفاً، فكانت محشومة ومخبأة من عيون البشر، حتى أن الرواة كانوا لا يعرفون ملامحها، وقيل فيها إنها عندما خطبت لعبد الله بن عبد المطلب كانت حينها أفضل فتاة في قريش نسباً وموضعاً، وكانت بشذاها العطرة تنبثق من دور بني زهرة، ولكنه ينتشر في أرجاء مكة، وقد عرفت آمنة في طفولتها وحداثتها ابن العم عبد الله بن عبد المطلب؛ حيث إنه كان من أبناء أشرف أسر قريش، حيث يعتبر البيت الهاشمي أقرب هذه الأسر إلى آل زهرة؛ لما لها من أواصر الود والعلاقة الحميمة التي تجمعهم بهم، عرفته قبل أن ينضج صباها، وتلاقت معه في طفولتها البريئة على روابي مكة وبين ربوعها، وفي ساحة الحرم، وفي مجامع القبائل، ولكنها حجبت منه؛ لأنها ظهرت فيها بواكر النضج، هذا جعل فتيان من أهل مكة يتسارعون إلى باب بني زهرة من أجل طلب الزواج منها، لم يكن

عبد الله بين الذين تقدموا لخطبة زهرة قريش مع أنه أولى بأن يحظى بها، لما له من رفعة وسمعة وشرف، فهو ابن عبد المطلب بن هاشم وأمه فاطمة بنت عمرو بن عائذ المخزومية، ولكن السبب الذي يمنع عبد الله من التقدم إلى آمنة؛ هو نذر أبيه بنحر أحد بنيه لله عند الكعبة، حيث إن عبد المطلب حين اشتغل بحفر البئر، وليس له من الولد سوى ابنه الحارث، فأخذت قريش تذله، فنذر يومها، إذا ولد له عشرة من الأبناء سوف ينحر أحدهم عند الكعبة، فأنعم الله على عبد المطلب بعشرة أولاد، وكان عبد الله أصغرهم ، وخفق قلب كل شخص وهو ينتظر اللحظة ليسمع اسم الذبيح، وبقيت آمنة، لا تستطيع أن تترك بيت أبيها، ولكنها تترقب الأنباء في لهفة، وقد اختير عبد الله ليكون ذبيحاً، ومن ثم ضرب صاحب القدح فخرج السهم على عبدالله أيضاً فبكت النساء، ولم يستطع عبد المطلب الوفاء بنذره؛ لأن عبد الله أحب أولاده إليه، إلى أن أشار عليهم شخص وافد من خيبر بأن يقربوا عشراً من الإبل ثم يضربوا القداح فإذا أصابه، فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم، فذا خرجت على الإبل فانحروها، فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم، وظلوا على هذه الحالة ينحرون عشراً ثم يضربون القداح حتى كانت العاشرة، بعد أن ذبحوا مئة من الإبل. جاء وهب ليخبر ابنته عن طلب عبد المطلب بتزويج آمنة بابنه عبد الله فغمر الخبر المفرح نفس آمنة، وبدأت سيدات آل زهرة تتوافد الواحدة تلو الأخرى لتبارك لآمنة، وكذلك قيل بأن الفتيات كن يعترضن طريق عبد الله؛ لأنه اشتهر بالوسامة، فكان أجمل الشباب وأكثرهم سحراً، حتى إن أكثر من واحدة خطبته لنفسها مباشرة، وأطالت آمنة التفكير في فتاها الذي لم يكد يفتدى من الذبح حتى هرع إليها طالبا يدها، زاهدا في كل أنثى سواها، غير مهتم إلى ما سمع من دواعي الإغراء! واستغرقت الأفراح ثلاثة أيام، ولكن عيناها ملأتها الدموع؛ لأنها سوف

تفارق البيت الذي ترعرعت فيها، وأدرك عبد الله بما تشعر به، وقادها إلى رحبة الدار الواسعة، وذكر بأن البيت لم يكن كبيراً ضخم البناء، لكنه مريح لعروسين ليبدآ حياتهما.

فكان البيت ذا درج حجري يوصل إلى الباب ويفتح من الشمال، ويدخل منه إلى فناء يبلغ طوله نحو عشر أمتار في عرض ستة أمتار، وفي جداره الأيمن باب يدخل منه إلى قبة، وفي وسطها يميل إلى الحائط الغربي مقصورة من الخشب، أعدت لتكون مخدعاً للعروسين.

بعد زواج عبد الله من آمنة أعرضن عنه كثير من النساء اللواتي كن يخطبنه علانية، فكانت بنت نوفل بن أسد من بين النساء اللواتي أعرضن عن عبد الله، فسأل عبد الله واحدة منهن عن سبب إعراضها عنه فقالت :" فارقك النور الذي كان معك بالأمس، فليس لي بك اليوم حاجة".

أدهش هذا الكلام عبد الله وآمنة وراحا يفكران في القول الذي قالته تلك المرأة، ولم تكف آمنة عن التفكير والرؤيا عنها وسبب انشغال آمنة في التفكير يرجع إلى أن هذه المرأة أخت ورقة بن نوفل الذي بشر بأنه سوف يكون في هذه الأمة نبي، وبقي عبد الله مع عروسه أياماً، وقيل إن المدة لم تتجاوز عشرة أيام؛ لأنه يجب عليه أن يلحق بالقافلة التجارية المسافرة إلى غزة والشام.

انطلق عبد الله بسرعة قبل أن يتراجع عن قراره، ويستسلم لعواطفه، ومرت الأيام وآمنة تشعر بلوعة الفراق، ولهفة والحنين إلى رؤيته، حتى إنها فضلت العزلة والاستسلام لذكرياتها مع عبد الله بدلاً من أن تكون مع أهلها، ومرت الأيام شعرت خلالها آمنة ببوادر الحمل، وكان شعوراً خفيفاً لطيفاً ولم تشعر فيه بأية مشقة حتى وضعته، وفي

هذه الأيام كانت تراودها شكوك في سبب تأخير عبد الله، فكانت تواسي نفسها باختلاقها الحجج والأسباب لتأخيره.

وجاءت بركة أم أيمن إلى آمنة فكانت لا تستطيع أن تخبرها بالخبر الفاجع، الذي يحطم القلب عند سماعه؛ فكانت تخفيه في صدرها كي لا تعرفه آمنة، ومن ثم أتاها أبوها ليخبرها عن عبد الله التي طال معها الانتظار وهي تنتظره، فيطلب منها أن تتحلى بالشجاعة، وأن عبد الله قد أصيب بوعكة بسيطة، وهو الآن عند أخواله بيثرب، ولم تجد هذه المرأة العظيمة سوى التضرع والخشية وطلب الدعاء من الخالق البارئ لعله يرجع لها الغائب؛ الذي تعبت عيناها وهي تنتظره، وفي لحظات نومها كان تراودها أجمل وأروع الأحلام والرؤى عن الجنين الذي في أحشائها، وتسمع كأن أحداً يبشرها بنبوءة وخبر عظيم لهذا الجنين.

وجاء الخبر المفزع من الحارث بن عبد المطلب ليخبر الجميع بأن عبد الله قد مات، أفزع هذا الخبر آمنة، فنهلت عيناها بالدموع وبكت بكاء مراً على زوجها الغائب، وحزن أهلها حزناً شديداً على فتى قريش عبد الله، وأنهلت بالنواح عليه وبكت مكة على الشجاع القوي.

نصحت آمنة بنت وهب بالصبر على مصابها الجلل، الذي لم يكن ليصدق عندها حتى إنها كانت ترفض العزاء في زوجها، ولبثت مكة وأهلها حوالي شهراً أو أكثر وهي تترقب ماذا سوف يحدث بهذه العروس الأرملة التي استسلمت لأحزانها، وطال بها التفكير بزوجها الغالي عليها، حتى إنها توصلت للسر العظيم الذي يختفي وراء هذا الجنين اليتيم، فكانت تعلل السبب فتقول أن: عبد الله لم يفتد من الذبح عبثاً، لقد أمهله الله حتى يودعني هذا الجنين الذي تحسه يتقلب في أحشائها، والذي من أجله يجب عليها أن تعيش، وبذلك أنزل الله عز وجل الطمأنينة والسكينة في نفس آمنة، وأخذت تفكر بالجنين الذي وهبها

الله عز وجل لحكمة بديعة: " ألم يجدك يتيماً فآوى" (الضحى6) فوجدت آمنة في هذا الجنين مواساة لها عن وفاة زوجها، ووجدت فيه من يخفف عنها أحزانها العميقة، فرح أهل مكة بخبر حمل آمنة وأنهلوا عليها من البشائر لتهنئتها بالخبر السعيد، وتتكرر الرؤى عند آمنة وسمعت كأن أحداً يقول لها: " أعيذه بالواحد، من شر كل حاسد، ثم تسميه محمداً".

وجاءها المخاض فكانت وحيدة ليس معها أحد ولكنها شعرت بنور يغمرها من كل جانب، وخيل لها أن مريم ابنة عمران، وآسية امرأة فرعون، و هاجر أمّ إسماعيل كلهن بجانبها، فأحست بالنور الذي انبثق منها، ومن ثم وضعت وليدها كما تضع كل أنثى من البشر، وهنا اكتملت فرحة آمنة" فوليدها بجوارها، ولم تعد تشعر بالوحدة التي كانت تشعر بها من قبل، وفرح الناس وفرح الجد عبد المطلب بحفيده، وشكر الرب على نعمته العظيمة وسماه محمداً، وسبب تسميته محمداً؛ هو أنه يريده أن يكون محموداً في الأرض وفي السماء، ومن ثم توال القوم ليسموا أبناءهم بهذا الاسم ، وشعرت آمنة بأن القسم الأول والأهم قد انتهى بوضع وليدها المبشر، ورسالة أبيه قد انتهت بأن أودعه الله جنيناً في أحشائها، ولكن مهمتها بقت في أن ترعاه وتصحبه إلى يثرب ليزور قبر فقيدهما الغالي عبد الله، وبعد بضعة أيام جف لبن آمنة لما أصابها من الحزن والأسى لموت زوجها الغالي عليها، فأعطته لحليمة بنت أبي ذؤيب السعدي حتى ترضعه، فبات عندهم حتى انتهت سنة رضاعته وأرجعته إلى آمنة، وفي الفترة التي عاش عند حليمة حدثت لرسول حادثة شق الصدر التي أفزعت النفوس بها. حان الوقت التي كانت آمنة ترقبه حيث بلغ محمد السادسة من عمره بعد العناية الفائقة له من والدته، وظهرت عليه بوادر النضج، فصحبته إلى أخوال أبيه المقيمين في يثرب ولمشاهدة قبر فقيدهما

الغالي، وعندما وصلت إلى قبر زوجها عكفت هناك ما يقارب شهراً كاملاً، وهي تنوح وتتذكر الأيام الخوالي التي جمعتها مع زوجها بينما محمد يلهو ويلعب مع أخواله.

تعبت آمنة في طريقها بين البلدتين إثر عاصفة حارة وقوية هبت عليهم، فشعرت بأن أجلها قد حان فكانت تهمس بأنها سوف تموت، ولكنها تركت غلاماً طاهراً، ثم أخذها الموت من بين ذراعي ولدها الصغير وفارقت هذه الدنيا، وأنهلت أعين الطفل بالبكاء بين ذراعي أمه، فهو لا يدرك معنى الموت بعد، فأخذته أمّ أيمن فضمته المسكينة إلى صدرها وأخذت تحاول أن تفهمه معنى الموت حتى يفهمه، وعاد اليتيم الصغير إلى مكة حاملاً في قلبه الصغير الحزن والألم، ورأى بعينيه مشهد موت أعزُّ الناس وأقربهم إلى قلبه؛ أمه آمنة التي يصعب عليه فراقها.

حكاية المتكلمة بالقرآن

قال عبد الله بن المبارك رحمه الله: خرجت حاجاً وزائراً لقبر النبي صلى الله عليه وسلم فبينما أنا في بعض الطريق، إذ أنا بشيء أسود يتحرك فاقتربت منه، فإذا هي عجوز عليها درع وخمار من صوف.

قلت لها : السلام عليك يا أمة الله.

قالت : (سلام قولاً من ربٍ رحيم) ... يس 58

قلت: ماذا تفعلين في هذا المكان يرحمك الله ؟

قالت : (من يضلل الله فلا هادي له) ...الأعراف 186

فعرَّفت أنها ضلت عن الطريق.

قلت لها : أين تريدين؟

قالت : (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) ... الإسراء 1

فعلمت أنها قد قضت حجها وهي تريد التوجه إلى بيت المقدس.

قلت لها : منذ متى وأنت في هذا الموضع؟

قالت : (ثلاث ليالٍ سوياً) ... مريم 4

قلت: ما أرى معك طعاماً تأكلين !

قالت : (هو يطعمني ويسقيني) ... الشعراء 79

قلت فإن معي طعاماً، فهل لك في الأكل؟

قالت : (ثم أتموا الصيام إلى الليل) ... البقرة 187

ففهمت أنها صائمة.

قلت : ولكننا لسنا في شهر الصوم؟ !

قالت : (ومن تطوع خيراً فإن الله شاكرٌ عليم) ... البقرة 158

قلت : قد أبيح لنا الإفطار في السفر ...

قالت : (وأن تصوموا خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون) ... البقرة 184

فقلت : من أي الناس أنت؟

قالت : (ولا تقفُ ما ليس لك به علم) ... الإسراء 36

قلت : فاجعليني في حلّ مما قلت.

قالت : (لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم)...يوسف92

قلت : هل لي أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة؟

قالت : (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) ... البقرة 197

قال : فأنخت لها ناقتي .

قالت : (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم) ... النور 30

قلت لها اركبي ...

قالت : (سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين)...الزخرف 13

قال : فأخذت بزمام الناقة وأخذت أسعى ...

قالت : (واقصد في مشيك واغضض من صوتك) ...لقمان 19

قال : فأخذت أمشي رويداً وأترنم بالشعر...

قالت : (فاقرؤوا ما تيسر من القرآن) ... المزمل 20

قلت لها : لقد أوتيتم خيراً كثيراً ...

قالت : (وما يذكر إلا أولو الألباب) ... البقرة 269

قال : وظللنا على هذه الحال حتى بلغت بها القافلة .

فقلت لها : من لك فيها؟ !

قالت : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) ... الكهف 46

ففهمت أن لها أبناء شبان ...

قلت لها : وما شأنهم في الحج؟

قالت : (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) ... النحل 16

قال : فعلمت أنهم أدلاء الركب فقصدت بها إلى القباب والعمارات .

فقلت لها :هذه القباب فمن تريدين فيها؟

قالت : (واتخذ الله إبراهيم خليلاً) ... النساء 125

)وكلم الله موسى تكليماً) ...النساء 164

)يا يحيى خذ الكتاب بقوة) ... مريم 12

قال : فناديت يا إبراهيم، يا موسى، يا يحيى فإذا أنا بشبان كأنهم أقمار...فلما استقر بهم الجلوس.

قالت : (فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فليأتكم برزق منه) الكهف19

فمضى أحدهم فاشترى طعاما، فلما قدموه بين يديّ.

فقالت : (كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية) ... الحاقة 24

فقلت: الآن طعامكم حرام عليّ حتى تخبروني بحكايتها؟

قالوا : إن هذه أمنا لها أكثر من أربعين سنة لا تتكلم إلا بالقرآن خشية أن تزل فيسخط عليها الرحمن ...

فقلت : (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) ... الجمعة 4

هذا والله تعالى أعلم بالصواب وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ...

الصابرة.. ومهرها الإسلام ..

(أم سليم بنت ملحان)

بشرها النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة فقال : "دخلتُ الجنة، فسمعتُ خشفة (حركة) بين يدي، فإذا أنا بالرميصاء بنت ملحان" [متفق عليه.[

تُرى.. ماذا عملت تلك السيدة لتكون من أهل الجنة؟ وماذا عن حياتها؟

آمنتْ باللَّه، وآثرتْ الإسلام حين أشرقتْ شمسه على العالم، وتعلمتْ في مدرسة النبوة كيف تعيش المرأة حياتها،تصبر على ما يصيبها من حوادث الزمان؛ كي تنال مقعد الصابرين في الجنة، وتفوز بمنزلة المؤمنين في الآخرة.

فقد فقدت الرميصاء ابنها الوحيد، وفلذة كبدها، وثمرة حياتها؛ حيث شاء اللَّه له يمرض ويموت، فلم تبكِ ولم تَنُحْ، بل صبرتْ واحتسبتْ الأجر عند اللَّه، وأرادت ألا تصدم زوجها بخبر موت ابنه، وقررت أن تسوق إليه الخبر في لطف وأناة،حتى لا يكون وقْع الخبر سيئًا،عاد أبو طلحة، وقد كان غائبًا عن هذه الزوجة الحليمة العاقلة، فما إن سمعت صوت زوجها، حتى استقبلته بحفاوة وبوجه بشوش، وقدمت له إفطاره وكان صائمًا ثم تزينت له زينة العروس لزوجها ليلة العرس.

أقبل أبو طلحة يسألها عن الولد، وقد تركه مريضًا قبل أن يخرج، فتجيب في ذكاء ولباقة: هو أسكن من ذي قبل، ثم تتحيَّن الزوجة الصابرة الفرصة، فتبادره في ذكاء وفطنة بكلمات يحوطها حنان وحكمة قائلة له: يا أبا طلحة، أرأيت لو أن قومًا أعاروا أهل بيت

عارية، فطلبوا عاريتهم، أيمنعونهم؟! قال: ليس لهم ذلك، إن العارية مؤداة إلى أهلها.

فلما انتزعت منه هذا الجواب، قالت: إن اللَّه أعارنا ابننا، ثم أخذه مِنَّا، فاحتسِبْه عند اللَّه.

قال: إنا للَّه وإنا إليه راجعون، ووجد في نفسه مما فعلت زوجته.

فلما لاح الفجر، ذهب أبو طلحة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، يخبره بما كان من زوجته أم سليم، فيقول النبي صلى الله عليه وسلم :"بارك اللَّه لكما في ليلتكما" [البخاري,[

يقول أحد الصحابة: إنه وُلد لأم سليم وزوجها من تلك الليلة عبد اللَّه بن أبي طلحة، فكان لعبد الله عشرة من الولد، كلهم قد حفظ القرآن الكريم، وكان منهم إسحق بن عبد الله الفقيه التابعي الجليل.

كانت أم سليم مؤمنة مجاهدة تشارك المسلمين في جهادهم لرفع راية الجهاد والحق.

فكانت مع أم المؤمنين السيدة عائشة - رضي اللَّه عنها - يوم أُحد، فكانتا تحملان الماء وتسقيان العطشى، وفي يوم حنين جاء أبو طلحة يُضحك رسول اللَّه -صلى الله عليه وسلم- من أم سليم، فقال: يا رسول الله هذه أم سليم معها خنجر؟

فقالت: يا رسول الله إن دنا مني مشرك؛ بقرت به بطنه [ابن سعد...[

ولم تكتف الرميصاء بالمشاركة في ميدان الجهاد، بل اشتهرت مع ذلك بحبها الشديد للعلم والفقه، فعن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت: جاءت أم سليم إلى رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم فقالت: إن اللَّه لا يستحي من الحق، فهل على المرأة من غُسل إذا احتلمت؟

فقال : "إذا رأت الماء" (فغطَّتْ أم سلمة وجهها حياءً) وقالت: أو تحتلم المرأة؟

قال: "نعم ، تَرِبَتْ يمينُكِ فبِمَ يُشْبِهُهَا ولدُها؟" [البخاري] ، وقد اختلفوا في اسمها، فقيل، سهلة، وقيل: رُميلة وقيل: رُميتة، وقيل: أنيفة.

وتعرف بأم سليم بنت ملحان بن خالد بن زيد ابن حرام من الخزرج من بني النجار،تربطها بالنبي صلى الله عليه وسلم، صلة قرابة، ذلك أن بني النجار هم أخوال أبيه، وهى أخت حرام بن ملحان، أحد القراء السبعة، وأخت أم حرام زوجة عبادة بن الصامت.

تزوجت مالك بن النضر فولدت له أنس بن مالك، وذات يوم جاءت أم سليم إلى زوجها مالك بن النضر- وكانت قد أسلمت، وهو لا يزال على شِركه - فقالت له: جئتُ اليوم بما تكره؟ فقال: لا تزالين تجيئين بما أكره من عند هذا الأعرابي (يقصد رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم)، قالت: كان أعرابيّا اصطفاه الله واختاره، وجعله نبيّا.

قال: ما الذي جئتِ به؟

قالت: حُرِّمت الخمر.

قال: هذا فراق بيني وبينك.

فمَات مشركًا، وتقدم "أبو طلحة" إلى أم سليم ليخطبها، وذلك قبل أن يسلم.

فقالت له: أما إني فيك لراغبة، وما مثلك يُرد ، ولكنك رجل كافر وأنا امرأة مسلمة، فإن تسلم؛ فذلك مهري، لا أسألك غيره، فأسلم أبو طلحة وتزوجها.

وفى رواية أنها قالت: يا أبا طلحة ألستَ تعلم أن إلهكَ الذي تعبده خشبة نبتتْ من الأرض نَجَرَها حبشي بن فلان؟

قال: بلى، قالت: أفلا تستحي أن تعبدها؟ لئن أسلمت لم أُرِدْ منك من الصداق غير الإسلام، فأسلم.

قالت: يا أنس! زوِّج أبا طلحة، فكان ابنها وليَّها في عقدها.

قال ثابت: فما سمعنا بمهر قط كان أكرم من مهر أم سليم: الإسلام.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يزور أم سليم -رضي الله عنها- ويتفقد حالها، فسُئل عن ذلك فقال: "إني أرحمها، قُتل أخوها معي" [الطبراني] ،وأخوها هو حرام بن ملحان قتل في بئر معونة شهيدًا في سبيل الله.

تلك هي أم سليم، عاشت حياتها تناصر الإسلام، وتشارك المسلمين في أعمالهم، وظلت تكافح حتى أتاها اليقين، فماتت، ودُفنتْ بالمدينة المنورة،رحمها الله تعالى ورضي عنها.

أم البنين بنت عبد العزيز

أخت عمر بن عبد العزيز

كانت تحمل على فرس تجاهد في سبيل الله عز وجل...فمن هي أم البنين؟؟

هي امرأة في أعلى بيوت مراتب الخلفاء، وهي أم البنين بنت عبدالعزيز بن مروان الذي حكم مصر عشرين عاماً وهو والد عمر بن عبدالعزيز، كانت أم البنين من هذا النسب الراقي؛ أخوها الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبدالعزيز (الغني عن التعريف) وعمها عبد الملك بن مروان وزوجها الوليد بن عبدالملك، الذي فتح في عهده الفتوحات تنتسب لهذه الأسرة التي حكمت دار الإسلام فترة طويلة يقولون عنها إحدى فقيهات الإسلام، فنظروا لتصرفها مع الحجاج القصة مشهورة، لكن هنا بحديث الدكتور طارق السويدان، وإن كانت القصة طويلة ففيها فوائد لكل ذي فطن، وهي قصة عجيبة تدل على فصاحتها وعلى قوتها مع رجل هو من أشد الناس يضرب بشدته المثل وكان إذا ذكر اسمه يرتجف الناس كما يقولون، هو والي العراق الحجاج بن يوسف الثقفي وكلنا يسمع بالحجاج وبطش الحجاج وشدة الحجاج.

الحجاج الذي قاتل وقتل خيرة الناس قتل سعيد بن جبير، وهو عالم المسلمين ومن أفاضلهم يقولون: يكفيه إثماً أن قتل سعيد بن جبير وقتل عالم المسلمين عبد الرحمن بن الأشعث، وقتل عبد الله بن الزبير بن العوام الصحابي ابن الصحابي أحد العبادلة الذين يرجع إليهم الفقه؛ فالحجاج كان بهذه الدرجة لا يخاف أحداً ولايعطي حقاً لأحد ولايهمه من يقف أمامه ولو كان صحابياً أو ابن صحابي أو عالم

جليل، هكذا كان باطشاً جباراً يخشاه الناس، ماذا فعلت أم البنين بهذا الرجل الجبار ؛القصة مذكورة كثيراً في كتب التاريخ وتبدأ القصة بزيارة الحجاج بن يوسف الثقفي إلى الخليفة الوليد بن عبدالملك في الشام، وجده خارج من العاصمة في نزهة فذهب إليه، فلما وصل إلى الخليفة نزل عن فرسه، وأخذ يمشي يتقرب ويتودد إلى الخليفة (الذي كان راكباً) فأخذ يمشي بجانب الخليفة؛ وقد كان مدججاً بالسلاح عليه الخوذة والدرع وبيده السيف والرمح وفي ظهره الكنانة فيها الأسهم جاهز للقتال، هكذا كان شأن الحجاج فقال له الخليفة : أركب يا أبا محمد، فقال بخضوع : يا أمير المؤمنين دعني أستكثر من الجهاد في خدمتك، فإن عبد الله بن الزبير وعبدالرحمن بن الأشعث (الذي كان بينهم المعارك الطويلة) قد شغلاني عنك وعن خدمتك، فظل الوليد يقسم عليه حتى صعد على جواده، حتى وصلا إلى دار الوليد بن عبدالملك فلما دخل جلس الوليد مع الحجاج بدون أسلحة. وصلت الأخبار أم البنين (زوجة الوليد) أن أعرابياً جلفاً شديداً ومدججاً بالسلاح جالس مع الخليفة الذي هو معزول عن السلاح ، فخافت على زوجها فأرسلت جارية إلى الخليفة، وهمست إلى الخليفة نقلاً عن أم البنين تقول له: من هذا الأعرابي الجلف المدجج في السلاح عندك، وأنت في غلالة ضرر (معزول عن السلاح وليس معه حماية)، فرد عليها: بأنه الحجاج بن يوسف. وكان الحجاج يراقب كل ذلك، فقال الخليفة: أتدري ما هذا يا أبا محمد؟ قال: لا يا أمير المؤمنين. فقال الخليفة: هذه ابنة عمي أم البنين بنت عبد العزيز، زوجتي قد بعثت إلي تقول: مامجالستك لهذا الأعرابي الجلف الغارق في سلاحه وأنت في غلالة، آلا تخشى غدره؟ فأرسلت إليها أطمئنها هذا الحجاج بن يوسف (يبين للحجاج مدى ثقته به)،الحجاج تضايق من رأي زوجة الخليفة فيه، لكن زاد الأمر أنه بعد قليل تأتي الجارية مرة أخرى

فتقول تسر إليه عن أم البنين:" والله يا أمير المؤمنين ما أحب أن يخلوا بك الحجاج، وقد قتل الخلق وأهل الطاعة والحق وأنت تطمئن إليه، والله لأن يخلون بك ملك الموت أحب إلي من أن يخلوا بك الحجاج " ذعر الحجاج، وظل الوليد على موقفه، فينقل ما قالته أم البنين عن الحجاج... (وهذا يبين له درجة زيادة ثقته فيه مع أنه قتل من قتل) وخشي الحجاج أن تؤلب قلب الوليد عليه وتقلب الأمور ضده، فأراد أن يقلب الأمور عليها، فقال قولة يريد أن يضعف شأنها : " يا أمير المؤمنين دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول فإن المرأة ريحانة وليست بقهرمانة (الوكيل الحافظ المؤتمن على الأمور يعني لا تسلم المرأة الأمور المهمة) فلا تطلعهن على سرك ولا على مكايدة عدوك، فإن رأيهن إلى أفن وعزمهن إلى وهن، ولاتطمعها أن تشفع عندك ولاتطل الجلوس معهن فإن ذلك أوفر لعقلك وهذا أبين. ووصل الخبر إلى أم البنين ومن حكمتها أنها ما انتقدت ولا علقت، بل سكتت وبدأت تعد وتخطط بالرد على هذا الرأي السفيه فقالت للخليفة بعد أن أنهى جلسته مع الحجاج: يا أمير المؤمنين لقد سمعت بالحجاج وبمكانته وبفضله وبقوته فأحب أن أكلمه، فيا أمير المؤمنين أحب أن تأمر الحجاج أن يسلم علي في الغد (يمر علي في الغد) فقال : أفعل إن شاء الله. في اليوم الثاني قال الوليد للحجاج: سر إلى أم البنين وسلم عليها. (الحجاج عرف المصيبة التي ستأتي) فقال: أعفني يا أمير المؤمنين من ذلك؟ قال: ويحك لا بد لك من ذلك ولتفعلن. فذهب إلى أم البنيين، فاستأذن عليها وهو يعرف مكانتها... وفضلها عند الخليفة والخلفاء، وفي الشام وفي المدينة فأمرته أن ينتظر وظل ينتظر فترة طويلة،بعدها سمحت له بالدخول، فدخل وهي من وراء ستار وسلم وردت عليه السلام وظل واقفاً، ولم تأذن له بالجلوس فقالت من وراء سترها: " إيه ياحجاج أنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل عبد

الله بن الزبير بن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم، الصوام القوام المستغرق الساعات في الطاعات (يعني من أنت حتى تتفاخر بقتل شخص كهذا)، هذا ابن أسماء بنت الزبير، وأخذت تعد مناقب ابن الزبير (هو خصم للدولة الأموية لكن مع ذلك لم يقلل من مكانته وفضله اختلاف رأي واختلاف اجتهاد،أهل العقل يتخاصمون لكن كل واحد يعرف فضل الآخر) وأنت الممتن على أمير المؤمنين بقتل عبدالرحمن ابن الأشعث العالم المجاهد(وأخذت تذكر فضائله) ثم بدأت تذكر مفاسد الحجاج، أنت الذي فعلت كذا وأنت الذي أسأت في كذا، وهو ساكت غير قادر أن يرد على فصاحتها، ثم أضافت: ويحك يا ابن يوسف أما والله لولا أن الله علم أنك شر خلقه وأهون خليقته ما ابتلاك برمي الكعبة بالمنجنيق (عندما حاصر ابن الزبير ولم يستطع فتحها إلا بالمنجنيق ، فأصابت الحجارة الكعبة) وما أخزاك الله بقتل النقي التقي ابن ذات النطاقين...

أما والله أن ابن الأشعث ولي عليك الهزائم (خمس معارك بينهم كان الحجاج هو المهزوم فيها) ولولا أن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان (أرسل لك جيشاً وساعدك كنت انهزمت فلا تفتخر بنفسك) . وأما نهيك أمير المؤمنين عن مفاكهة النساء، فطالما نفض نساء أمير المؤمنين المسك من غدائرهن والحلي من أيديهن وبعنه من أجل أن نأتي بالمال في أعطيات الشام لنرسلها إليك، لولا ذلك لكنت أذل الخلق؛ فإن كانت النساء يلدن مثلك كما ولدت أمك فما حقه (من جاء بك أليس امرأة؟!) ولولا ذلك ما كنت أنت موجود، ولا استمع الأمير لرأيك ولا لنصيحتك والحجاج فغر فاه، ثم بدأت تعيّره بفراره أمام الخوارج (كان بين هذه الفرقة والدولة الأموية معارك، وكان الذي يتولى هذه المعارك الحجاج وطالما هزم فيها، فبينه وبين الدولة 80 معركة وفي كثير من هذه المعارك كانت تقودها امرأة هي زوجة قائد

الخوارج شبيب الخارجي غزالة، امرأة مشهورة وقوية جداً لكنها منحرفة في عقيدتها، من قوتها حلفت أن تصلي الفجر في مسجد الكوفة مقر الحجاج، وتقرأ في الركعة الأولى البقرة وفي الركعة الثانية آل عمران وفعلاً دخلت بجيشها إلى الكوفة وصلّت والجيش يحميها والحجاج غير قادر على إيقافها، فبدأت تستهزئ به أم البنين تقول: لا قاتل الله،الشاعر وقد نظر إليك وسنان غزالة بين كتفيك، ثم قالت : أخرجوه عني فخرج غير قادر يمشي في الطريق، ثم ذهب إلى الخليفة فقال له: يا أبا محمد ماذا كنت فيه؟، فقال له الحجاج : ما سكتت أم البنين حتى كان باطن الأرض خير لي من ظاهرها، وماظننت أن امرأة تبلغ بلاغتها وتحسن فصاحتها. فقال له الوليد : ياحجاج إنها ابنة عبدالعزيز بن مروان.

أول ممرضة في التاريخ الإسلامي

هي الصحابية الجليلة الطبيبة الفدائية رُفيدة بنت سعد الأنصارية رضي الله عنها، تُعد رُفيدة الأسلمية من كريمات النساء وفضليات الصحابيات المجاهدات، فبايعت الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة، واشتركت في غزوتَيْ الخندق وخَيْبر وكانت رضي الله عنها قارئة، كاتبة وصاحبة ثروة واسعة قد استهوتها حِرْفة التمريض ومهنة التطبيب والمداواة، وتفوّقت في ذلك حتى اشتهرت بها وعُرفت بين الناس قاطبة، وكان يُطلق عليها (الفدائية) لأنها كانت تدخل أرض المعركة تحمل الجرحى وتُسعف المصابين وتُشجِع المجاهدين. ظهرت خيمة رفيدة على مسرح الأحداث بدءاً من يوم أُحد عندما كانت تعالج المصابين تضمِّد جراحاتهم وتُسعفهم وتسهر على راحتهم وتواسيهم، وكانت رضي الله عنها تخرج في الغزوات، وتنقل معها خيمتها بكل متطلباتها، أدواتها، واحتياجاتها فوق ظهور الجِمال، ثم تُقيمها بإزاء معسكر المسلمين تشاركها العمل الصحابيات رضوان الله عليهن، لذا تعتبر خيمة رفيدة الأسلمية على الرغم من بدائيتها أول مستشفى ميداني في التاريخ الإسلامي.

روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أصيب سعد بن معاذ يوم الخندق بسهم أطلقه أبو أسامة الجشمي حليف بني مخزوم، فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم رفيدة أن تقيم خيمة في المسجد ليعوده من قريب، كانت تُداوي الجرحى وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضبعة (جرح أو مرض) من المسلمين ولقد ذكر الإمام ابن حجر العسقلاني في كتابه (الإصابة في تمييز الصحابة): كيف أن رفيدة الأسلمية عندما رأت انغراس السهم في صدر سعد تصرفت بحكمة ووعي، فأسرعت بإيقاف النزيف، ولكنها أبقت السهم في صدره لأنها

كانت تعلم أنها إذا سحبته أو أخرجته سيُحدث نزيفاً لا يتوقف من مكان الإصابة، كانت مستشفى رُفيدة كما تواتر أنه أقيم لها خيمة خاصة وبارزة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم كمستشفى، لعلاج المرضى والمصابين بجروح، وكوّنت فريقاً من الممرضات حيث قسمتهن إلى مجموعات لرعاية المرضى ليلاً ونهاراً ولم يكن عمل رفيدة مقتصراً على الحروب فقط. بل عملت أيضاً في وقت السلم تعاون وتواسي كل محتاج، وكانت أول سيدة تعمل في نظام أشبه ما يكون بنظام المستشفيات في وقتنا هذا. أما كونها أول ممرضة في الإسلام فليس في ذلك خلاف فقد ذاع صيتها بين معاصريها في فن الجراحة لهذا السبب اختارها الرسول صلى الله عليه وسلم لعلاج سعد بن معاذ رضي الله عنه، وكان من أعظم أعمال رفيدة رضي الله عنها، فهو إنفاقها على عملها هذا من حُر مالها وخالص ثروتها متطوعة بالجهد والمال في سبيل الله.

وتقديراً من النبي صلى الله عليه وسلم كان يُعطي رفيدة حصة مقاتل كما أعطى المتفوقات من المساعدات لها قلادة شرف، تقديراً للجهود التي بذلنها في مداواة الجرحى، فعن أميمة بنت قيس الغفارية قالت: جئتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسوة من بني غفار فقلنا: يا رسول الله إنا نريد أن نخرج معك إلى خيبر فنداوي الجرحى ونُعين المسلمين بما استطعنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "على بركة الله".

قالت أميمة: فخرجنا معه صلى الله عليه وسلم وكنتُ جارية حديثاً سني فلما فتح الله لنا خيبر قسَّم لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفَيْء وأخذ القِلاَدة - التي ترَيْن في عُنُقي – فأعطانيها، وعلّقها بيده في عُنقي فوَالله لا تفارقني أبداً، فكانت في عُنُقها حتى ماتت وأوصت أن تدفنَ معها رضي الله عنها.

خطيبة النساء

هي أسماء بنت يزيد بن السكن بن رافع بن امرؤ القيس بن عبد الأشهل الأنصارية الأوسية، وهى أيضاً أم عامر وأم سلمة الأنصارية الأشهلية، وابنة عمة معاذ بن جبل - رضي الله عنهما وأرضاهما- ، أسلمت في العام الأول للهجرة وقد اشتهرت بمتابعة أمور دينها والتعرف على دقائقه، وكثيراً ما كان أخواتها النساء يستعن بها في سؤال الرسول -صلى الله عليه وسلم- عن دقائق أمورهن الخاصة فتستجيب لهن، لذا عُرفت بخطيبة النساء .

أتت أسماء بنت يزيد رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم وهو بين أصحابه فقالت : بأبي وأمي أنت يا رسول الله ، أنا وافدة النساء إليك ، إن الله عز وجل بعثك إلى الرجال والنساء كافة فآمنا بك ، وإنا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم ومقضى شهواتكم وحاملات أولادكم، وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا بالجمع والجماعات وعيادة المرضى وشهود الجنائز والحج بعد الحج، وأفضل من ذلك الجهاد في سبيل الله، وإن الرجل إذا خرج حاجًّا أو معتمرًا أو مجاهدًا حفظنا لكم أموالكم وغزلنا أثوابكم وربينا لكم أولادكم، أفما نشاركم في هذا الأجر والخير ؟.

فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه بوجهه كله ثم قال: "هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسن من مساءلتها في أمر دينها من هذه؟" فقالوا : يا رسول الله، ما ظننا أن امرأة تهتدي إلى مثل هذا، فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم إليها فقال:" افهمي أيتها المرأة وأعلمي من خلفك من النساء أن حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته وإتباعها موافقته يعدل ذلك كله، فانصرفت المرأة وهي تهلل.

بلغ عدد الأحاديث التي روتها أسماء بنت يزيد رضي الله عنها عن الرسول صلى الله عليه وسلم واحداً وثمانين حديثاً، وقد كانت الثالثة بين النساء في هذا ولم يسبقها إلا السيدة عائشة، والسيدة أم سلمة - رضي الله عنهن وأرضاهن جميعاً -.

وكان مما روت أسماء بنت يزيد عن الرسول صلى الله عليه وسلم: مر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن في نسوة فسلم علينا وقال: "إياكن وكفر المنعمين". فقلنا: يا رسول الله، وما كفر المنعمين؟ قال: "لعل إحداكن أن تطول أيمتها بين أبويها وتعنس، فيرزقها الله عز وجل زوجًا ويرزقها منه مالاً وولدًا فتغضب الغضبة، فراحت تقول: ما رأيت منه يومًا خيرًا قط، وقال مرة: خيرًا قط! ".

وقد روى عنها الإمام أحمد عدة أحاديث منها : عن أسماء بنت يزيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "العقيقة عن الغلام شاتان مكافأتان، وعن الجارية شاة ".

وعن أسماء بنت يزيد قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إني لست أصافح النساء ".

وعن أسماء بنت يزيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من بنى لله مسجدًا فإن الله يبني له بيتًا أوسع منه في الجنة ".

وعن أسماء بنت يزيد أنها كانت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم والرجال والنساء قعود عنده، فقال: " لعل رجلاً يقول ما يفعل بأهله، ولعل امرأة تخبر بما فعلت مع زوجها" ، فأزم القوم فقلت: أي والله يا رسول الله، إنهم ليفعلون وإنهن ليفعلن. قال: "فلا تفعلوا، فإنما مثل ذلك مثل شيطان لقي شيطانة فغشيها والناس ينظرون".

وقد كان لها دور في الغزوات فقد شهدت مع الرسول صلى الله عليه وسلم غزوة خيبر ، وبعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام

شهدت معركة اليرموك، وقيل إنها اقتلعت من خيمتها عموداً وراحت تضرب به رؤوس الروم حتى قتلت منهم يومئذ تسعة.

بعد معركة اليرموك أقامت بالشام وأخذت تُحدث النساء بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وتروي عنه حتى توفيت في حدود السبعين هجرية، وقبرها في دمشق بالباب الصغير.

رضي الله عنها وأرضاها ورزقنا حُسن الإقتداء بأمهات المؤمنين والصحابيات.

التي نزلت فيها آيات الظهار (خولة بنت ثعلبة)

خولة بنت مالك بن ثعلبة بن أصرم بن فهر بن ثعلبة ، وهي من الفصحاء البُلغاء، زوجها هو أوس بن الصامت بن قيس، أخو عبادة بن الصامت رضي الله عنهما ، أنجبت منه الربيع ،وهي التي جاءت إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - لتشتكي زوجها ونزلت فيها آيات الظهار ،عن خولة بنت ثعلبة قالت: فيَّ والله وفي أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة قالت: كنت عنده وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه قالت : فدخل عليَّ يومًا، فراجعته بشيء فغضب، فقال: أنت عليَّ كظهر أمي،قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليَّ فإذا هو يريدني عن نفسي قالت: قلت : كلا والذي نفس خولة بيده، لا تخلص إليَّ وقد قلت ما قلت. حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، قالت: فواثبني فامتنعت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي فاستعرت منها ثيابًا، ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجلست بين يديه فذكرت له ما لقيت منه، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه.

قالت : فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يا خويلة، ابن عمك شيخ كبير، فاتقي الله فيه"، قالت : فوالله ما برحت حتى نزل فيَّ قرآن، فغشي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما كان يغشاه ثم سري عنه، فقال لي: "يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآنًا ثم قرأ عليَّ (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ(1) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (2)وَالَّذِينَ

يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِير (3)فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ(4)) (التحريم 1-4).

قالت : فقال لي رسول الله صلَّ الله عليه وسلم: "مريه فليعتق رقبة" قالت: فقلت يا رسول الله، ما عنده ما يعتق، قال: "فليصم شهرين متتابعين". قالت: فقلت: والله إنه لشيخ كبير، ما به من صيام، قال: "فليطعم ستين مسكينًا وسقًا من تمر" قالت: فقلت : والله يا رسول الله، ما ذاك عنده ، قالت : فقال رسول الله - صلَّ الله عليه وسلم : "فإنا سنعينه بعرق من تمر". قالت: فقلت يا رسول الله، وأنا سأعينه بعرق آخر قال: "قد أصبت وأحسنت، فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم استوصي بابن عمك خيرًا" قالت : ففعلت.

ومن مواقفها مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه وأرضاه -خرج عمر - رضي الله عنه- من المسجد ومعه الجارود العبدي، فإذا بامرأة برزت على ظهر الطريق، فسلم عليها عمر فردت عليه السلام، وقالت: هيهات يا عمر، عهدتك وأنت تسمى عميرًا في سوق عكاظ ترعى الضأن بعصاك، فلم تذهب الأيام حتى سميت عمر، ثم لم تذهب الأيام حتى سميت أمير المؤمنين، فاتق الله في الرعية، واعلم أنه من خاف الوعيد قرب عليه البعيد، ومن خاف الموت خشي عليه الفوت.

فقال الجارود: قد أكثرت أيتها المرأة على أمير المؤمنين. فقال عمر: دعها، أما تعرفها، فهذه خولة بنت حكيم امرأة بن الصامت التي سمع الله قولها من فوق سبع سموات، فعمر والله أحق أن يسمع لها.

اللهم ارزقنا جرأتها في الحق واجمعنا بها في الفردوس الأعلى من الجنة يارب .

أول امرأة تركب لتغزو البحر

(أم حرام بنت ملحان الأنصارية)

قالت أم حرام: إنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أول جيش من أمتي يركبون البحر قد أوجبوا. قالت أم حرام: يا رسول الله: أنا فيهم؟ قال: أنت فيهم. (الحلية ج/ 2/ 62).

إن من البطولة أن تذهب المرأة للجهاد وفي سبيل الله، ومن البطولة أن تموت غازية في أرض بعيدة، ثم تدفن فيها. فالثبات على المبدأ، والخروج للجهاد في سبيل نشره، والموت دفاعاً عنه، يعتبر من النوادر بالنسبة للرجال فكيف الأمر بامرأة كأمّ حرام؟

أمران هما العجيبان في أمر أمّ حرام: أولهما أنها امرأة مصرة على الجهاد في سبيل الله، شابة و كهلة، فقد طلبت من رسول الله في شبابها أن يدعو لها بأن تكون من المجاهدين مع الرجال، وقد جاهدت فعلاً في كهولتها، وثانيهما أن تكون منيتها في قبرص، في وسط البحر الأبيض المتوسط، بعد أن جاهدت مع الرجال وهي في سن الكهولة.

لكن ما يزيل عجبنا، أن أمّ حرام نبعت من أسرة أساسها الإيمان، وهدفها الجنة، ووسيلتها الجهاد في سبيل الله، فأخوها حرام بن ملحان هو القائل يوم بئر معونة فزت ورب الكعبة وأختها أم سليم، كانت نداً للرجال في المعارك، وابن أختها أنس بن مالك، معروف في ملازمته لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومشاركته له في كل الغزوات، وزوجها عبادة بن الصامت هو الصحابي الورع المناضل المجاهد.

فماذا ينقص أم حرام حتى تكون فرداً من أفراد تلك الأسرة المؤمنة المجاهدة ،أليست من آل النجار أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

بشارة رسول الله ترافقها أينما حلت وأينما ارتحلت، الإيمان بالدين يدفعها، والقدوة من أفراد أسرتها تسيرها، والطمع في جنة الخلد هدفها.

بعد أن أسلمت أم حرام وعندما آن الأوان وأذن الله لرسوله بالهجرة، كانت قباء أول مكان ينزل به رسول الله صلى الله عليه وسلم من ضواحي المدينة، وهي سكن لبني عمرو بن عوف، وعبادة بن الصامت منهم وزوجته أم حرام من بني النجار أخوال رسول الله.

ولعل أسعد أيام أم حرام، كانت الأيام التي استضافت فيها قباء رسول الله وصحبه، فقد سمعت عن كثب أقواله عليه الصلاة والسلام، ورأت كثيراً مما غمض عليها من أمور دينها، وبايع الناس رسول الله، وبايعت النساء، وذلك بأن يقررن بأنفسهن بألا يشركن بالله شيئاً فإذا قلن ذلك بألسنتهن، قال عليه الصلاة والسلام: لقد بايعتكن. وعلى رأسهن بايعت أم حرام وأمّ سليم أختها.

ولم تبق أمّ حرام حبيسة بيتها، قعيدة في زاويته مستسلمة مستكينة، والمسلمون يغزون في كل مكان، لا بد أنها كانت مع أختها أم سليم ومثيلاتها من النساء، يرافقن الرجال إلى الغزوات والمعارك، لهن أعمال كثيرة محددة وأدوار هامة تحصل في الخطوط الخلفية من المعارك لإحراز النصر، إنها أعمال الجندي المجهول وأم حرام جاهدت في أواخر حياتها فكيف لا تكون مجاهدة في شباب؟

فقد ساهمت في معارك أحد وحنين والخندق والفتح والطائف مع زوجها عبادة رضي الله عنه، كما كانت أم حرام داعية للدين، تعلم النساء حولها، وتتلقط من فم رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ما تسمعه منه، لتعيه ذاكرتها، ثم تسرده على مسامع أترابها، فتروي ذلك عن رسول الله، وحديثها في جميع الدواوين.

ويقول عنها كتاب سير أعلام النبلاء إنها كانت من علية القوم، وقد حدث عنها ابن أختها أنس بن مالك وغيره، قبض عليه الصلاة والسلام، ونبوءته عن أمّ حرام لم تتحقق في حياته، وفي خلافة أبي بكر اتجهت الفتوحات إلى العراق أولاً ثم إلى بلاد الشام ثانياً، وكلها جيوش متدفقة نحو اليابسة، إذ لم يفكر أحد أثناء خلافته رضي الله عنه أن يغزو في البحر.

وأتمّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما بدأه الصديق، فلم يفكر في غزو البحر مطلقاً لولا أن جاءته رسالة من معاوية بن أبي سفيان، وكان واليه على الشام، جاء في تاريخ الطبري:

(ألح معاوية وهو والٍ على الشام من قبل عمر، أن يذهب لغزو قبرص ولج عليه حتى قال: إن قرية من قرى حمص يسمع أهلها نباح كلابهم، وصياح دجاجهم، حتى كاد يأخذ بقلب عمر).

والروم كانوا قد جعلوا من قبرص مركزاً لهم، لغزو المسلمين في الشام فكان لا بد من تحريرها وتطهيرها من سيطرتهم، ولم يكن للمسلمين عهد بغزو البحر؟ لذلك فوجئ عمر بإلحاح معاوية، وجعل يفكر في غزو البحر وصعوبته، فلم يجد أعرف بذلك الأمر من عمرو بن العاص، فكتب إلى عمرو يقول: (صف لي البحر وراكبه فإن نفسي تنازعني إليه)، فرد عليه عمرو بن العاص قائلاً : (إني رأيت خلقاً كبيراً، يركبه خلق صغير، ليس إلا السماء والماء، إن ركد خرق القلوب، وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد في اليقين قلة والشك كثرة، هم فيه كدود على عود، إن مال غرق وإن نجا برق).

فلما قرأ عمر الكتاب كتب إلى معاوية: (والذي بعث محمداً بالحق، لا أحمل فيه مسلماً أبداً، وقد بلغني أن بحر الشام يشرف على أطول شيء من الأرض، فيستأذن الله في كل يوم وليلة أن يغرق الأرض؟

فكيف أحمل بالجنود على هذا الكافر المستصعب، وبالله لمسلم واحد أحب إلي مما حوت الروم).

وبقيت فكرة غزو البحر تراود معاوية، إلى أن قتل عمر بن الخطاب وتولى عثمان بن عفان فكتب إلى عثمان رضي الله عنه، ولم يزل به حتى وافقه على ركوب البحر.

ومنذ ذلك اليوم بدأ غزو البحار، فكان معاوية أول من بدأ بذلك حين وافق عثمان على عرض معاوية، كتب له: (لا تنتخب الناس ولا تقرع بينهم خيرهم، فمن اختار الغزو طائعاً فاحمله وأعنه)، ففعل معاوية واستعمل على البحر عبد الله بن قيس الجاسي حليف بني فزارة، فغزا خمسين غزاة بين شاتية وصائفة في البحر، ولم يغرق فيه أحد، ولم ينكب وربما كانت هذه الغزوات الناجحة هي التي شجعت معاوية على ركوب البحر.

ترامى إلى مسامع أم حرام، وهي في قباء، استئذان معاوية من عثمان أن يغزو في البحر وموافقة عثمان على ذلك، فتذكرت نبوءة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت قد وصلت إلى خريف العمر، وبلغت من الكبر مرحلة لا تستطيع أن تجاهد فيها، لكنها تلهفت لركوب البحر والجهاد في سبيل الله.

ألم يقل لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنت من الأولين؟ إنها لا تطمع بمغنم ولا تتوق لفوز، ولكن رغبتها في الجهاد هي التي كانت تدفعها، وطلبت من عبادة زوجها أن يستأذن لها عثمان بن عفان، وألحت في طلبها، حتى وافق لهما عثمان بمرافقة الجيش، كما أذن لغيرهما من كبار الصحابة؛ أمثال أبي ذر الغفاري وأبي الدرداء وغيرهما.

وآن وقت التنفيذ وجهزت السفن أسطولاً لغزو قبرص، فركبت أم حرام مع زوجها عبادة إحدى السفن، مع الفاتحين المسلمين، وجلست تتأمل البحر وما حولها: إنهم فعلاً كالملوك على الأسرة، وإذا بنبوءة رسول الله صلى الله عليه وسلم تتردد في أذنيها: كالملوك على الأسرة، أنت من الأولين، وتحس فعلاً أنهم كالملوك على الأسرة مع يقينها أنها من الأولين،وشرعت تحدث من حولها بنبأ تلك النبوءة وتفخر وتسعد بذلك.

وانتهت المعركة واستعدت الجيوش للعودة من حيث جاءت وقد غنمت وما غرمت، وبدأت ترجع إلى الشام على سفنها، كالملوك على الأسرة، وتهيأت أم حرام للعودة، متوكلة على الله، ولكنها كانت قد أسنت وضعف جسدها، ووهنت قوتها، فقربوا لها بغلة تمتطيها، لتوصلها إلى السفينة المعدة لها، فزلت قدمها وسقطت على الأرض، لا تقوى على النهوض، أسرع إليها زوجها عبادة رضي الله عنه، وعدد من كبار الصحابة يساعدونها ويسعفونها لكنها كانت قد لفظت أنفاسها الأخيرة، مطمئنة النفس باسمة الثغر مشرقة المحيا، فنقلوها إلى حيث قاموا بتجهيزها ثم دفنها وذلك في العام السابع والعشرين من الهجرة.

فإن قبر أم حرام في قبرص لواءً يسترشد به السائرون، ومنارة تنير سبيل السالكين، وقدوة لكل من يريد الجهاد في سبيل الله، وأهل قبرص المسلمون منهم وغير المسلمين حين يمرون بقبرها يقولون: هذا قبر المرأة الصالحة.

ونحن إذ نعيد ذكراها وننفض الغبار عن تاريخها، لا يسعنا إلا أن نقف إجلالاً لسيرتها الزكية، وحديثها العطر، وأن ندعو لها رضي الله عنها، وأن نجعل منها رائدة وقدوة في سيرتها وجهادها، وعطائها الذي لا ينضب من شبابها حتى شيخوختها، فهي رائدة في سبقها للإسلام

والالتزام بمبادئه، رائدة في المشاركة بغزوات رسول الله صلى الله عليه وسلم، رائدة في نقل أحاديثه عليه الصلاة والسلام وحفظها وروايتها، رائدة في شبابها، رائدة في شيخوختها وفي استشهادها، رائدة في كل أمورها، وأكثر من ذلك كله، فإن نبوءة رسول الله صلى الله عليه وسلم تجعلها في منزلة الشهداء الصديقين وحسن أولئك رفيقاً.

رضي الله عن أم حرام فهي بحق مثل أعلى يقتدى به.

مسك الختام

هي فاطمة بنت محمد بن عبد الله بن هاشم -

سيد المرسلين وخاتم النبيين سيد ولد آدم - عليه صلوات الله وسلامه، وصغرى بناته، وهي أيضاً ابنة خديجة أول النساء إيماناً بالإسلام، وهي زوج علي بن أبي طالب، أول من أسلم من الصبيان فما سجد لصنم، وما انحنى لوثن وهو المجاهد مع النبي منذ صغره، وهو خليفة المسلمين الرابع، وهي أم الحسنين سيدا شباب أهل الجنة.

ولقد شاء الله أن يقترن مولد فاطمة في يوم الجمعة الموافق للعشرين من جمادى الآخرة في السنة الخامسة قبل البعثة بقليل بالحادث العظيم؛ الذي ارتضت فيه قريش محمداً حكماً لما اشتد الخلاف بينهم حول وضع الحجر الأسود بعد تجديد بناء الكعبة، وكيف استطاع عليه الصلاة والسلام برجاحة عقله أن يحل المشكلة، وينقذ قريش مما كان يتهددها من حرب ودمار وإسالة دماء وعداوة بين الأهل والعشيرة.

حمل الأب الحاني ابنته المباركة يهدهدها ويلاطفها، وكانت فرحة خديجة كبيرة ببشاشته، وهو يتلقى الأنثى الرابعة في أولاده، ولم يظهر عليه غضب ولا ألم لأنه لم يرزق ذكراً وكانت فرحة خديجة أكبر حين وجدت ملامح ابنتها تشبه ملامح أبيها، وقد استبشر الرسول بمولدها فهي النسمة الطاهرة التي سيجعل الله نسله منها.

وعن أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها قالت: كانت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أشبه الناس وجهاً برسول الله صلى الله عليه وسلم .

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: ما رأيت أحداً من خلق الله أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة.

وقد كان تسميتها فاطمة بإلهام من الله تعالى فقد روى الديلمي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن علي أنه عليه السلام. قال :"إنما سميت فاطمة؛ لأن الله فطمها وحجبها من النار".والفطام هو القطع والمنع.

ترعرعت فاطمة في بيت النبوة الرحيم، والتوجيه النبوي الرشيد، وبذلك نشأت على العفة وعزة النفس وحسن الخلق، متخذة أباها رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى لها والقدوة الحسنة في جميع تصرفاتها، وما كادت الزهراء أن تبلغ الخامسة حتى بدأ التحول الكبير في حياة أبيها بنزول الوحي عليه، وقد تفتحت مداركها على أبيها وهو يعاني من صد قريش وتعنت سادتها، وشاهدت العديد من مكائد الكفار، واعتدائهم على الرسول الكريم، وكان أقسى ما رأته فاطمة عندما ألقى سفيه مكة عقبة بن أبي معيط الأذى على رأس أبيها وهو ساجد يصلي في ساحة الكعبة، ويبقى الرسول صلى الله عليه وسلم ساجداً إلى أن تتقدم فاطمة وتلقي عنه القذر.

وكان من أشد ما قاسته من آلام في بداية الدعوة ذلك الحصار الشديد الذي حوصر فيه المسلمون مع بني هاشم في شعب أبي طالب، وأقاموا على ذلك ثلاث سنوات، فلم يكن المشركون يتركون طعاماً يدخل مكة ولا بيعاً إلا واشتروه، حتى أصاب التعب بني هاشم واضطروا إلى أكل الأوراق والجلود، وكان لا يصل إليهم شيئاً إلا متخفياً، ومن كان يريد أن يصل قريباً له من قريش كان يصله سراً.

وقد أثر الحصار والجوع على صحة فاطمة فبقيت طوال حياتها تعاني من ضعف البنية، ولكنه زادها إيماناً ونضجاً، وما كادت الزهراء الصغيرة تخرج من محنة الحصار حتى فوجئت بوفاة أمها خديجة -

رضي الله عنها - فامتلأت نفسها حزناً وألماً، ووجدت نفسها أمام مسؤوليات ضخمة نحو أبيها النبي الكريم، وهو يمر بظروف قاسية خاصة بعد وفاة خديجة رضي الله عنها وعمه أبي طالب، فما كان منها إلا أن ضاعفت الجهد، وتحملت الأحداث في صبر، ووقفت إلى جانب أبيها لتقدم له العوض عن أمها الغالية و أكرم الزوجات ولذلك كانت تكنى بأم أبيها.

ثم جاءت هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يثرب بعد أن لم يبق له في مكة مكان وعلى أثره هاجر علي رضي الله عنه ، وكان قد تمهل ثلاثة أيام في مكة ريثما أدى عن النبي الودائع التي كانت عنده للناس وبقيت فاطمة وأختها أم كلثوم حتى جاء رسول من أبيها فصحبهما إلى يثرب، ولم تمر هجرتهما بسلام فما كادتا تودعان مكة حتى طاردهما اللئام من مشركي قريش، ونخس أحد سفهاء مكة يدعى الحويرث بن نقيذ بعيرهما فرمى بهما إلى الأرض، وكانت فاطمة يومئذ ضعيفة نحيلة الجسم، وتركهما تسيران بقية الطريق إلى أن وصلا إلى المدينة، وقد اشتد غضب الرسول صلى الله عليه وسلم على من آذى ابنتيه، فأهدر دمه.

وبعد أن تزوج الرسول صلى الله عليه وسلم من السيدة عائشة- رضي الله عنها- تقدم كبار الصحابة لخطبة الزهراء، بعد أن كانوا يحجمون عن ذلك سابقاً لوجودها مع أبيها صلى الله عليه وسلم وخدمتها إياه، فقد تقدم لخطبة الزهراء أبو بكر وعمر وعبدالرحمن بن عوف - رضي الله عنهم- ولكن النبي صلى الله عليه و سلم اعتذر في لطف ورفق، وتحدث الأنصار إلى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وشجعوه على التقدم لخطبة فاطمة، وأخذوا يذكرونه بمكانته في الإسلام وعند رسول الله حتى تشجع وذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم خاطباً، وعندما حضر مجلس النبي غلبه الحياء فلم يذكر

حاجته، وأدرك رسول الله ما ينتاب علي من حرج فبادره بقوله: ما حاجة ابن أبي طالب؟، أجاب علي: ذكرت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مرحباً وأهلاً...

وكانت هذه الكلمات برداً وسلاماً على قلب علي فقد فهم منها، وكذلك فهم أصحابه أن رسول الله يرحب به زوجاً لابنته، وكانت تلك مقدمة الخطبة،عرف علي أن رسول الله يرحب به زوجاً لأبنته فاطمة، فلما كان بعد أيام ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وخطب فاطمة، وكان مهرها رضي الله عنها درعاً أهداها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى علي في غزوة بدر، وقد دعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما في نسلهما".

لم تكن حياة فاطمة في بيت زوجها مترفة ولا ناعمة، بل كانت أقرب للخشونة والفقر، وقد كفاها زوجها الخدمة خارجاً وسقاية الحاج وأسنده لأمة، وكان علي رضي الله عنه يساعدها في شؤون المنزل، قال علي رضي الله عنه: لقد تزوجت فاطمة وما لي ولها فراش غير جلد كبش ننام عليه بالليل ونجلس عليه بالنهار، ومالي ولها خادم غيرها، ولما زوجها رسول الله بي بعث معها بخميلة ووسادة أدم حشوها ليف ورحائين وسقاء وجرتين، فجرت بالرحى حتى أثرت في يدها، واستقت بالقربة بنحرها ،وقمّت البيت حتى اغبرت ثيابها، ولما علم علي -كرم الله وجهه- أن النبي صلى الله عليه وسلم قد جاءه خدم، قال لفاطمة: لو أتيت أباك فسألتيه خادماً،فأتته، فقال النبي: ما جاء بك يا بنيه؟ قالت :جئت لأسلم عليك، واستحيت أن تسأله ورجعت، فأتاها رسول الله من الغد، فقال: ما كانت حاجتك؟ فسكتت فقال علي :والله يا رسول الله لقد سنوت حتى اشتكيت صدري، وهذه فاطمة قد طحنت حتى مجلت يداها، وقد أتى الله بسبي فاخدمنا.

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم :"لا والله،لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم، لا أجد ما أنفق عليهم ولكن أبيع وأنفق عليهم بالثمن" فرجعا إلى منزلها، فأتاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخفف عنهما عناءهما، وقال لهما برفق وحنان: ألا أخبركما بخير مما سألتماني؟ قالا: بلى: فقال :"كلمات علمنيهن جبريل: تسبحان الله دبر كل صلاة عشراً، وتحمدان عشراً، وتكبران عشراً،وإذا أويتما إلى فراشكما تسبحان ثلاثة وثلاثين، وتحمدان ثلاثة وثلاثين، وتكبران أربعاً وثلاثين" .

وخيمت السعادة على بيت فاطمة الزهراء عندما وضعت طفلها الأول في السنة الثالثة من الهجرة، ففرح به النبي فرحاً كبيراً فتلا الآذان على مسمعه، ثم حنكه بنفسه وسماه الحسن، فصنع عقيقة في يوم سابعه، وحلق شعره وتصدق بزنة شعره فضة، وكان الحسن أشبه خلق الله برسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه، وما أن شب الحسن من العمر حتى ولد بعده الحسين في شهر شعبان سنة أربع من الهجرة، وتفتح قلب رسول الله لسبطيه الحسن والحسين، فغمرهما بكل ما امتلأ به قلبه من حب وحنان، وكان صلى الله عليه وسلم يقول: "اللهم أني أحبهما فأحبهما وأحب من يحبهما"، وتتابع الثمر المبارك فولدت الزهراء في العام الخامس للهجرة طفلة اسماها جدها صلى الله عليه وسلم زينب، وبعد عامين من مولد زينب وضعت طفلة أخرى اختار لها الرسول اسم أم كلثوم.

وبذلك آثر الله فاطمة بالنعمة الكبرى، فحصر في ولدها ذرية نبيه صلى الله عليه وسلم، وحفظ بها أفضل سلالات البشرية، وقد بلغ من حب رسول الله صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة- رضي الله عنها- أنه لا يخرج من المدينة حتى يكون آخر عهده بها رؤية فاطمة، فإذا عاد من سفره بدأ بالمسجد فيصلي ركعتين، ثم يأتي فاطمة، ثم يأتي

أزواجه، وقد قال عليه الصلاة والسلام:" إنما فاطمة بضعة فمن أغضبها فقد أغضبني"، ولم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يراها تلبس الحلي وأمرها ببيعها والتصدق بثمنها؛ وما ذلك إلا لأنها بضعة منه وأنه يريدها مثلاً أعلى في الزهد والصبر والتقشف كما كان هو صلى الله عليه وسلم،ولتتبوأ بجدارة منزلة سيدة نساء العالمين يوم القيامة.

ولقد همّ علي كرم الله وجهه بالزواج من بنت أبي جهل - لعنه الله-، على السيدة فاطمة رضي الله عنها، وفي حسبانه أنه يجوز على بنات النبي صلى الله عليه وسلم ما يجوز على سائر النساء فيما أحله الشرع للمسلمين من تعدد الزوجات، وعندما بلغ رسول الله ذلك خرج إلى المسجد مغضباً حتى بلغ المنبر فخطب الناس، فقال:"إن بني هشام بن مغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب فلا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم،إلا أن يريد علي بن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم، وإني لست أحرم حلالاً، ولا أحل حراماً، لكن والله لا تجتمع بنت رسول الله، وبنت عدو الله أبداً". فترك علي الخطبة، وهذا دليل على حبه صلى الله عليه وسلم لبناته في بيئة وأدت بناتها.

وقد مرت السيدة فاطمة رضي الله عنها بأحداث كثيرة ومتشابكة وقاسية وذلك منذ نعومة أظفارها؛ حيث شهدت وفاة أمها، ومن ثم أختها رقية، وتلتها في السنة الثامنة للهجرة أختها زينب، وفي السنة التاسعة أختها أم كلثوم.

ولما حج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع، وأرسى قواعد الإسلام وأدى الأمانة، ونصح الأمة وأكمل الله الدين، حان وقت الرحيل عن الدنيا الفانية، وأخذت طلائع التوديع للحياة تظهر على ملامح الرسول صلى الله عليه وسلم وتتضح من خلال عباراته

وأفعاله، فقد اعتكف في رمضان في السنة العاشرة عشرين يوماً، بينما كان لا يعتكف إلا عشرة أيام، وكان يدارسه جبريل عليه السلام مرتين، وما قاله لمعاذ رضي الله عنه: "يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا".

وما قاله في خطبة الوداع :" أيها الناس اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا، وشهادة الناس له أنه بلغ وأدى ونصح..." وكان بداية مرضه صلى الله عليه و سلم بعد حجة الوداع في اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر سنة 11هجرية - وكان يوم الاثنين- وقد صلى المصطفى صلى الله عليه وسلم بالناس وهو مريض أحد عشر يوماً وجميع أيام المرض كانت ثلاثة عشر يوماً.

وما أن سمعت فاطمة بذلك حتى هرعت لتوها لتطمئن عليه، وهو عند أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها،فلما رآها هش للقائها، وقال: مرحبا بابنتي فأجلسها عن يمينه أو عن شماله ثم أسر إليها شيئاً فبكت، ثم أسر لها شيئاً فضحكت، قالت -عائشة- قلت ما رأيت ضحكاً اقرب من بكاء، قلت: أي شيء أسر إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالت الزهراء رضي الله عنها: ما كنت لأفشي سره ! فلما قبض، سألتها فقالت: قال: إن جبريل كان يأتيني كل عام فيعارضني بالقرآن مرة وأنه أتاني العام فعارضني مرتين، ولا أظن إلا أجلي قد حضر ،فاتقي واصبري، فإنه نعم السلف أنا لك، قالت فبكيت بكائي الذي رأيت: فلما رأى جزعي سارني الثانية، فقال :" يا فاطمة،أما ترضين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة؟وأنك أول أهلي لحاقاً بي؟" فضحكت.

ورأت فاطمة رضي الله عنها ما برسول الله من الكرب الشديد الذي يغشاه، فقالت: وأكرب أباه، فقال صلى الله عليه وسلم لها: ليس على

أبيك كرب بعد اليوم يا فاطمة، ولما حضرت النبي الوفاة، بكت فاطمة حتى سمع النبي صوتها فقال صلى الله عليه وسلم: "لا تبكِ يا بنية قولي إذا مت:إنا لله وإنا إليه راجعون، فإن لكل إنسان بها من كل مصيبة معوضة "، قالت فاطمة: ومنك يا رسول الله؟ قال: ومني.

ولما مات الرسول صلى الله عليه وسلم قالت فاطمة: يا أبتاه أجاب رباه، يا أبتاه في جنة الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه.

فلما دفن الرسول صلى الله عليه وسلم قالت: يا أنس كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب؟ وبكت الزهراء أم أبيها، وبكى المسلمون جميعاً نبيهم ورسولهم محمد صلى الله عليه وسلم وذكروا قول الله تعالى:" إنك ميت وإنهم ميتون".

ولما كان اليوم الذي توفي فيه رسول صلى الله عليه وسلم بويع لأبي بكر رضي الله عنه في ذلك اليوم، فلما كان من الغد جاءت فاطمة إلى أبي بكر رضي الله عنه ومعها علي كرم الله وجهه، فقالت: ميراثي من رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي، فقال: أمن الرثة أو من العقد؟ قالت: فدك-قرية كان للنبي صلى الله عليه وسلم نصفها- و خيبر وصدقاته بالمدينة أرثها كما يرثك بناتك إذا مت.

فقال أبو بكر رضي الله عنه: أبوك والله خير مني، وأنت والله خير من بناتي، وقد قال رسول الله: لا نورث،ما تركنا صدقة (يعني هذه الأموال القائمة) فيعلمن أن أباك أعطاكها،فو الله لئن قلت نعم، لأقبلن قولك، قالت:قد أخبرتك ما عندي، وقال لفاطمة وعلي والعباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:"لا نورث ما تركناه صدقة ".

وفي رواية أخرى عن عروة ابن الزبير عن عائشة أن فاطمة أرسلت إلى أبي بكر تسأله ميراثها من النبي صلى الله عليه وسلم فيما أفاء الله

على رسوله صلى الله عليه وسلم، تطلب صدقة رسول الله التي بالمدينة وفدك، وما بقي من خمس خيبر. فقال أبو بكر : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " لا نورث ما تركناه فهو صدقة إنما يأكل آل محمد من هذا المال –يعني مال الله – ليس لهم أن يزيدوا على المأكل " وإني والله لا أغير شيئاً من صدقات النبي صلى الله عليه وسلم، ولأعملن فيها بما عمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولست تاركاً شيئاً كان رسول الله يعمل به إلا عملت به. فإني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ. فتشهد علي ثم قال: إنّا عرفناك يا أبا بكر. فقال: والذي نفسي بيده لقرابة رسول صلى الله عليه وسلم أحب إلي أن أصل من قرابتي وأوسع منه. والحكمة من ذلك أن الله تعالى صان الأنبياء أن يورثوا دنيا؛ لئلا يكون ذلك شبهة لمن يقدح في نبوتهم بأنهم طلبوا دنيا وورثوها لورثتهم، ثم إن من ورثة النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه، ومنهم عائشة بنت أبي بكر وقد حرمت نصيبها بهذا الحديث النبوي، ولو جرى أبو بكر مع ميله الفطري لأحب أن ترث ابنته.

وطابت نفس فاطمة رضي الله عنه بما كان من قضاء أبي بكر رضي الله عنه، وأن الأنبياء لا يورثون مالاً، وعاشت زاهدة راضية حتى وافاها الأجل، فكانت أول اللاحقين بأبيها من أهل بيته كما بشرها بذلك، فطابت بالبشرى وعلمت أن الآخرة خير من الأولى وأبقى.

أوصت الزهراء رضي الله عنها علي بن أبي طالب بثلاث وصايا في حديث دار بينهما قبل وفاتها، وقالت الزهراء: يا ابن عم، إنه قد نعيت إلي نفسي، وإنني لا أرى حالي إلا لاحقة بأبي ساعة بعد ساعة، وأنا أوصيك بأشياء في قلبي. فقال كرم الله وجهه : أوصيني بما أحببت يا بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. فجلس عند رأسها وأخرج من كان في البيت، فقالت رضي الله عنها: يا ابن العم ما عهدتني كاذبة ولا خائفة، ولا خالفتك منذ عاشرتني.

فقال رضي الله عنه: معاذ الله! أنت أعلم بالله تعالى، وأبر واتقى وأكرم وأشد خوفاً من الله تعالى، وقد عزّ علي مفارقتك وفقدك إلا أنه أمر لابد منه، والله لقد جددت علي مصيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجل فقدك، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقد أوصت الزهراء رضي الله عنها عليا كرم الله وجهه بثلاث:

أولا: أن يتزوج بأمامة بنت العاص بن الربيع، وبنت أختها زينب رضي الله عنها، وفي اختيارها لأمامة رضي الله عنها قالت :أنها تكون لولدي مثلي في حنوتي ورؤومتي، وأمامة هي التي روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحملها في الصلاة.

ثانيا : أن يتخذ لها نعشاً وصفته له، وكانت التي أشارت عليها بهذا النعش أسماء بنت عميس رضي الله عنها، وذلك لشدة حياءها رضي الله عنها فقد استقبحت أن تحمل على الآلة الخشبية ويطرح عليها الثوب فيصفها، ووصفه أن يؤتى بسرير ثم بجرائد تشد على قوائمه ، ثم يغطى بثوب.

ثالثا :أن تدفن ليلاً بالبقيع.

لم يطل مرض الزهراء رضي الله عنها الذي توفيت فيه، ولم يطل مقامها في الدنيا كثيراً بعد وفاة المصطفى صلى الله عليه وسلم، وقد اختلفت الروايات في تحديد تاريخ وفاتها، فقيل في الثالث من جمادى الآخرة سنة عشرة للهجرة وقيل توفيت لعشر بقين من جمادى الآخرة، أما الأرجح فإنها توفيت ليلة الثلاثاء يوم الاثنين من شهر رمضان سنة إحدى عشرة من الهجرة .

وتوفيت وهي بنت تسع وعشرين سنة، وقيل كانت قبل وفاتها فرحة مسرورة لعلمها باللحاق بأبيها الذي بشرها أن تكون أول أهل بيته

لحاقاً به، وقيل: لبثت الزهراء بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أشهر وفي رواية أخرى ستة أشهر ، وقد نفذ علي كرم الله وجهه وصيتها، فحملها في نعش كما وصفته له ودفنت بالبقيع ليلاً ، وهي أول من حملت في نعش وأول من لحقت بالنبي صلى الله عليه وسلم من أهله.

حملت فاطمة بين دموع العيون وأحزان القلوب، وصلى عليها علي كرم الله وجهه ونزل في قبرها، فضم ثرى الطيبة الطاهرة فاطمة الزهراء رضي الله عنها كما ضم جثمان أبيها المصطفى صلى الله عليه وسلم وأخواتها الثلاث: زينب، ورقية وأم كلثوم رضي الله عنهن...

هذه قبسات من سيرة سيدة نساء العالمين على أمل أن يكون ذلك نبراساً يضيء القلوب ويمحو منها تشكيك المتشككين في عظمة هذا البيت، وهذه السيدة الطاهرة، فكل حياة سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء دروس وعبر وعظات، ففي صباها ناصرت الدعوة ودافعت عن أبيها وذلك درس للأولاد، وفي تزويجها وجهازها وصبرها على شظف العيش حل لكثير من المشكلات، وفي فضائلها وخصائصها ومزاياها إصلاح لكثير من الأخلاقيات وفي اهتمام المصطفى بها وتنويهه بذكرها وتهذيبه لها درس للفتيات المسلمات،وفي عفتها وطهارتها مرآة لكل فتاة.

لقد ضربت لنا الزهراء أنموذجاً فريداً ومثلاً أعلى في حياتها، فقد كانت مثال الزوجة الصالحة الصابرة، وكانت مثلاً في حسن علاقتها مع جارتها وقريباتها، وكانت قدوة في رسالة الأمومة حتى كان من ذريتها ما كان ، فرحم الله الزهراء ريحانة سيد ولد آدم وزوجة سيد الفرسان، وأم الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأم زينب بطلة كربلاء.

الفهرس